سلسلة

الأعلام

أبو حيان الأندلسي

النحوي المفسر

تأليف
الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

أَبو حَيَّان الأَندَلِسِي

النَّحوِي المفَسِّر

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

أشرف على هذه السلسلة
الدكتور علي أبو زيد

دار ابن كثير
دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب ١١٣/٦٣١٨ - تلفون ٨١٧٨٥٧ - ٠٣/٢٠٤٤٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً يليق بعظيم سلطانه، وجلال وجهه، ورفيع مقامه، وأصلي وأسلم على رسوله الكريم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ: فإن الحديث عن أبي حيان النحوي المفسِّر، واللغوي المتمكن لا يكون سهلاً إذا بُني على الإلمام بجوانب محدودة من تراث هذا العالم الجليل دون بسط القول فيه، وفيما تركه من آثار علمية من بعده.

فإنك إن تحدثت عن النحويين رأيت في سيرة هذا الرجل علماً من أعلام القرنين السابع والثامن، ترك لنا المؤلفات التي نهل منها طلاب العلم، كالارتشاف، والتذكرة، وشرح التسهيل، وغيرها من المؤلفات، وإن تناولت بحديثك علم الصرف وجدت عالماً فذّاً ترك لنا مجموعة من المؤلفات في هذا الباب بعضها من قَدْحه، وبعضها جاء شرحاً لمؤلفات من سبقه من أمثال ابن عصفور.

وإذا نظرت في علم التفسير وما أُلِّفَ فيه وجدت (البحر المحيط) له من أعظم ما أُلِّفَ في هذا الباب من علوم القرآن، وحسبك أنه البحر.

وأَضِفْ إلى ما سبق عمله الكبير في القراءات القرآنية بما تركه من مصنفات في هذا العلم، وبما أثبته في البحر المحيط من هذه القراءات، حتى غدا (البحر) مرجع الباحثين، وأصلاً من الأصول التي تُبْنَى عليها الدراسات الحديثة في التفسير والقراءات القرآنية.

لقد جدّ أبو حيان في طلب العلم في مرحلة مبكرة على شيوخ الأندلس منذ درج على أرض تلك الديار، ونهل من علومهم، وتتلمذ على شيوخهم، ثم اتجه نحو المشرق على عادة الأندلسيين، في استكمال علومهم، وكما فعل مَن سبقه كابن مالك وغيره، فطوّف في بلاد المغرب، وشمال إفريقيَّة، والحجاز، والسودان، ثم استقر أخيراً في مصر يلتقي العلماء واحداً بعد الآخر، ويستزيد من علمهم.

وبعد أن استوى له هذا القدر من الاطلاع عُيِّن مدرساً للتفسير، وتلمذ على يديه عدد كبير من طلاب العلم يدرسون اللغة والنحو والصرف والقراءات القرآنية ودواوين الشعراء، وكان هؤلاء الطلاب من ذوي المكانة العالية من قضاة ووزراء وكتاب وفقهاء، وكان بعضهم يرحل إليه من الشام، والذين يأتون من الأندلس ساعين إلى علم أهل المشرق لا يفوتهم الجلوس في حلقات أبي حيان العلمية، فقد تجاوزت سمعته حدود مصر إلى أصقاع العالم الإسلامي المترامية الأطراف.

أضف إلى هذا أن الذين جاؤوا من بعده، وفاتهم إدراكه، والتلقي على يديه، لم يفتهم أن يتعلموا مما خلّفه من مؤلفات في علوم شتى، وأنت حيثما يممت وجهك في تراث السابقين ومؤلفات العلماء تجد الحديث عن أبي حيان وآرائه والنقل عنه، واستمر هذا على مدى قرون متتابعة حتى عصرنا هذا.

وجملة القول أن هذا العالم الأندلسي قد ضرب بسهم وافر في علوم مختلفة من علوم هذه اللغة والعلوم الشرعية كالتفسير والفقه والحديث، حتى أطلق عليه المعاصرون ومن جاء بعدهم من المؤرخين للحركة العلمية في تاريخ هذه الأمة المسلمة ألقاباً تدل كلها على المنزلة الراقية والمكانة الرفيعة؛ التي بلغها في عصره عند العامة من الناس والخاصة ممن عاصره.

وإني إذ أقدِّم هذه الدراسة الموجزة عن أبي حيان لمستيقن أنها تكفي القارىء العجل ولا يستغني عنها، وأنها تقوم بحقهم وتشبع رغبتهم،

وتعطي صورة عن حياة أبي حيان ومؤلفاته وتلاميذه وشيوخه وأثره في الحركة العلمية في ذلك العصر، وهي مع هذا الذي ذكرت، تتناسب مع الخط الذي رُسم لهذه السلسلة التي حرصت دار ابن كثير على نشرها خدمة للعلم وطلابه.

هذا، وأرجو الله أن يكتب الخير والفلاح للدارِ الناشرة صاحبة هذا العمل، وللمشرف على هذه السلسلة مثل ذلك؛ لما بذله من جهد في المراجعة والتدقيق والمتابعة حتى ظهرت أعدادها على القدر الذي ترون، والحمد لله رب العالمين.

د. عبد اللطيف محمد الخطيب

تمهيد تاريخي

أنجز المسلمون فتح شمال إفريقيَّة، ودخل أهله في دين الله أفواجاً، ولم تفتر همة المجاهدين الذين خرجوا لنشر دين الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وتوجهت أنظارهم، إلى ماوراء البحر، وكانت أسبانيا وجهتهم الجديدة، وكان أهلها قد ضاقوا ذرعاً بحكم (لذريق) واستبداده وتسلُّطه الجائر عليهم؛ فكان الوضع مُهَيَّأً لاستقبال الفاتحين الذين يحملون العدل والمساواة مع عقيدتهم السمحاء.

قرر موسى بن نصير فتح الأندلس، فأرسل جنوده سنة (٩٢)هـ بقيادة طارق بن زياد، وكان فارساً قوي المراس شديد البأس خبيراً بالقتال والحروب، وكتب الله النصر لجيوش الفتح، واستقرَّ المسلمون في تلك البلاد، وقد مَرَّ الحكم الإسلامي لبلاد الأندلس بأطوار مختلفة، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى تقسيم هذا الحكم إلى فترات على النَّسق الآتي:

١ ـ **عهد الولاة**: ويبدأ هذا العهد بعد انتهاء عملية الفتح سنة (٩٥ هـ) وينتهي بدخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة (١٣٨هـ).

٢ ـ **عهد الإمارة**: ويبدأ بدخول عبد الرحمن الداخل، ويستمرُّ حتى إعلان الخلافة في الأندلس من قبل عبد الرحمن الناصر سنة (٣١٦ هـ).

٣ ـ **عهد الخلافة**: ويبدأ من سنة (٣١٦ هـ) وينتهي بوفاة الحاكم المستنصر سنة (٣٦٦ هـ)، أو بقيام الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع.

٤ ـ **عهد الطوائف:**

وهو عهد دول الطوائف، ويسمونه (ملوك الطوائف)، وقد سبقته أعوام من الفوضى والاضطراب، واستمر هذا العهد ثلاثة أرباع القرن تقريباً (٤٠٠ ـ ٤٨٤)، وانتهى بدخول الأندلس تحت سلطة المرابطين.

٥ ـ **عهد المرابطين: (٤٨٤ ـ ٦٢٠)**

دخلت الأندلس تحت سيطرة المرابطين، واستمرت حتى عام عشرين وخمسمئة، وبذلك تنضوي الأندلس تحت حكم الموحدين الذين غلبوا المرابطين على أمرهم، واستمر حكمهم قرابة قرن من الزمان، وانتهت دولتهم سنة عشرين وستمئة، ويمكن عَدّهما عهدين، كل واحد منهما مستقل عن الآخر.

٦ ـ **غرناطة:**

وقد استمر عهدها بين عام عشرين وستمئة وسبعة وثمانين وثمانمئة.

غرناطة

من العرض السابق نلاحظ أن الأندلس مرت بمراحل مختلفة من أشكال الحكم، ولم تثبت على نمط واحد، وكل ذلك سببه فرقة الكلمة، وحب السلطان، والنزاع الذي استحكم بين الفاتحين، فقد دخلوها بإرادة واحدة هدفها الجهاد، ثم تفرقت بهم الأهواء، واختلفت النزعات، فكان من أمرهم ما كان.

لقد بدأت تتفرَّق كلمتهم، وبدأ النصارى يوحِّدون قوتهم، ويجمعون شملهم، ويهاجمون أطراف هذه الدولة الإسلامية، ويستعيدونها من أيدي المسلمين معتمدين على الخلافات القائمة بين أمرائها، والظروف الصعبة التي كان يمر بها المسلمون، فيوجهون ضرباتهم إليهم، وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة من المعارك الطاحنة؛ التي تقلبت فيها الأمة منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس في أواخر القرن الرابع

الهجري، وتفككها إلى دويلات متناثرة متناحرة.

وبدأت هذه الدويلات تسقط واحدة تلو الأخرى، والمسلمون ينزحون من مكان إلى آخر، ولم يبق من أرض الأندلس إلا القليل، وظلَّت غرناطة شامخة وسط هذه الظلمة المحدقة بالبلاد والأمة، تذود عن الإسلام والمسلمين نحو قرنين من الزمان أو يزيد، وازدهرت فيها العلوم وكثر فيها العلماء، وبرزت فيها نهضة علمية واسعة.

الحياة الثقافية في غرناطة:

تقلبت الحياة في الأندلس خلال إمارة غرناطة في أطوار ثلاثة هي: طور الفتوة، وطور النضج، وطور الانحلال والتأخر[١].

أما **طور الفتوة**: فيبدأ باستقرار مملكة غرناطة، وتوطدها في أواخر القرن السابع الهجري.

وأما **طور النضج**: فقد كان في أواسط القرن الثامن الهجري وأواخره، وقد شهدت هذه الدويلة في النصف الأخير من هذا القرن ذروة قوتها، وقد بدأت في عصر السلطان يوسف بن إسماعيل أعظم سلاطين بني نصر (٧٣٣ ـ ٧٥٥) وأشدهم حماسة للآداب والفنون، واستمرت من بعدُ طوال القرن الثامن الهجري، وحفلت هذه الفترة بعدد كبير من العلماء والأدباء.

وأما **طور الانحلال**: فيبدأ منذ أوائل القرن التاسع الهجري حيث أخذت هذه الدويلة تستقبل عصرها الأخير، وما كان يمكن للحركة الفكرية أن تزدهر في مثل هذا الجو السياسي، لذا فإننا نجد في هذا الطور فراغاً فكرياً وعدداً قليلاً من العلماء والأدباء.

ويهمني من هذه الأطوار الطور الأول: يقول محمد عبد الله عنان: «وقد حفلت هذه الفترة التي بزغت فيها شمس الأندلس من جديد بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء، وازدهر الأدب، واستعاد الشعر بنوع خاص

---

(١) نهاية الأندلس (٣٤٢) وما بعدها.

كثيراً من روعته ورروائه القديم، وكان في طليعة شعراء هذه الفترة: الكاتب البليغ والأديب البارع الوزير ابن الحكم، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي، ومن أكابر الشعراء في تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني، **ومنهم أبو حيان الغرناطي محمد بن يوسف بن علي**... كان فوق تضلعه في الحديث والتفسير بارعاً في اللغة والأدب إماماً في النثر ونظم الموشحات، وقد ترك مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والأدب، وله شعر كثير»[١].

* * *

(١) نهاية الأندلس (٣٤٣ ـ ٣٤٤).

أبو حيـان

اسمه ونسبه:

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الأندلسي الجيَّاني الغرناطي المغربي المالكي، ثم الشافعي[(١)].

أما قولنا «أبو حيان» فتلك كنيته التي عرف بها بين الناس شرقاً وغرباً وقديماً وحديثاً، قال أبو حيان في (البحر)[(٢)]: «عن عمر: أشيعوا الكنى فإنها سنة. انتهى، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة لا يكاد يشترك فيها أحد مع من تكنى بها في عصره، فإنه يطير ذكره في الآفاق، وتتهادى أخباره الرفاق كما جرى في كنيتي بأبي حيان، واسمي محمد، فلو كانت كنيتي أبا عبد الله أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك لم اشتهر تلك الشهرة، وأهل بلادنا في جزيرة الأندلس كثيراً ما يلقبون الألقاب».

فأبو حيان يرى أنه انفرد بهذه الكنية في عصره[(٣)]، ولم يشركه فيها أحد، وكان ذلك مما أعان على شهرته بين الناس، إضافة إلى شهرته العلمية العظيمة.

وأما قولنا «النفزى» فهو نسبة إلى قبيلة «نفزة» قال ياقوت: (... نِفزة بكسر النون قبيلة كبيرة منها بنو عميرة، وبنو ملحان المقيمون بشاطبة)[(٤)] وقال ابن العماد الحنبلي: (النفزي نسبة إلى نِفزة بكسر النون وسكون الفاء قبيلة من البربر)[(٥)]. وكان للبربر دور كبير في عملية الفتح الإسلامي في أسبانيا سنة اثنتين وتسعين؛ حيث كان معظم جيش الفتح منهم، فقد استجاب عدد كبير من أفراد قبيلة نفزة لدعوة الجهاد، وكتب الله النصر والغلبة على أيديهم وأيدي المسلمين من القبائل الأخرى.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٨٩)، النجوم الزاهرة (١٠/ ١١١)، تتمة المختصر (٢/ ٤٨٣).
(٢) البحر المحيط (٨/ ١١٣).
(٣) وكني بها قبله أبو حيان التوحيدي.
(٤) معجم البلدان: (نفزة).
(٥) شذرات الذهب (٦/ ٤٥).

على أن ياقوتاً أن «نَفْزة» بفتح فسكون اسم مدينة بالمغرب الأقصى، فلا أدري هل سميت المدينة باسم القبيلة التي حَلَّت فيها، أم أن القبيلة اكتسبت هذا الاسم من تلك المدينة، على أن ما تميل إليه النفس هو الرأي الأول، ولم يشر إلى هذا الخلاف في ضبط الكلمة بين القبيلة والبلدة غير ياقوت.

وأما قولنا «الجيَّاني» فإن ذلك جاء من نسبته إلى «جَيّان»، وذكر ياقوت(١) أنها بالفتح والتشديد وفي آخرها نون، وأنها مدينة لها كورة واسعة بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وينسب إليها كثير من العلماء منهم مالك الجياني والحسين بن محمد بن أحمد الغساني ويعرف بالجيَّاني، وكان رئيس المحدِّثين في قرطبة، ومن المتأخرين أبو الحجاج يوسف بن محمد الجياني الأندلسي وغيرهم.

نقل ابن حجر عن أبي حيان: (قال في كتابه (النضار): وكان أبي من جيّان، فكان يقال لأبي: حَيّان الجياني بالجيم والمهملة)(٢).

وأما قولنا «الغرناطي» فلأنه ولد في غرناطة بعد أن انتقل أبوه إليها من جَيّان، وكان سبب انتقاله إليها وكثير من المسلمين كذلك ما أشرت إليه من سقوط القواعد الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وأن الناس كانوا يتجهون بأنظارهم إلى ما تبقى في أيدي المسلمين من المراكز في جنوب الأندلس، وقد تجمع عدد كبير من الناس في غرناطة بعد أن هجروا المراكز الأخرى هرباً بدينهم وخوفاً من الظلم والاضطهاد، وكان من الطبيعي أن يتجه أبوه إليها قبيل سقوط جَيّان، وذلك بعد أن عاث النصارى فيها فساداً، ثم محاصرتها أكثر من مرة(٣) إلى أن تم تسليمها من قِبَل ابن الأحمر عام ثلاثة وأربعين وستمئة إلى ملك قشتالة فرناندو.

---

(١) معجم البلدان: جيان.
(٢) الدر الكامنة (٥/ ٧٤).
(٣) نهاية الأندلس (٣١).

وما ذكرته حتى الآن من اسم أبي حيان أمر متفق عليه بين المصادر التي تحدثت عن أبي حيان ونسبه، غير أن هناك من يزيد في نسبة لفظ (المغربي) لأنه على مايبدو جاء من الأندلس إلى المغرب، ويزيدون أيضاً مذهبه فيقولون: المالكي ثم الشافعي.

* * *

حياة أبي حيان

يمكن لدارس حياة أبي حيان أن يقسمها إلى ثلاث مراحل تمتد من بداية حياته في «مطخشارش» إلى أن لقي ربه في القاهرة.

وسبب هذا الاتجاه في تقسيم حياته إلى هذه المراحل الثلاث؛ هو أني وجدت لكل مرحلة صفتها وطبيعتها التي تختلف فيها عن سابقتها، أضف إلى ذلك أن تقسيمها إلى هذه المراحل يجعل دراستها أدق وأسهل من سواها، وهي تعطي فكرة عن التدرج العلمي الذي تهيأ له، وتطور ثقافته في أوضاع متباينة. وهذه المراحل هي:

ـ **المرحلة الأولى**: ولادته ونشأته الأولى في الأندلس.

وتمتد هذه المرحلة من ولادته عام أربعة وخمسين وستمئة حتى عام تسعة وسبعين وستمئة[1]، وهو العام الذي غادر فيه الأندلس.

ـ **المرحلة الثانية**: الارتحال.

وتبدأ هذه المرحلة في عام تسعة وسبعين وستمئة، وتمتد حتى تاريخ استقراره في القاهرة، إذ يقال إنه دخلها عام ثمانين وستمئة، أو قبل ذلك بقليل.

ـ **المرحلة الثالثة**: مرحلة الاستقرار في مصر.

---

(١) أو عام ٦٧٧ أو ٦٧٨ وذلك لأن تاريخ خروجه من الأندلس مختلف فيه، وذلك سوف نلاحظه فيما بعد.

وبداية هذه المرحلة مختلف فيها كما أشرت فيما سبق، وأما نهايتها فقد كانت نهاية أبي حيان عام خمسة وأربعين وسبعمئة عندما استجاب لنداء ربه.

* * *

المرحلة الأولى

٦٥٤ ـ ٦٧٩

مكان ولادته:

تذهب بعض المراجع إلى أن أبا حيان ولد في غرناطة[١] ويبدو أن هذا الرأي ليس بدقيق؛ لأن هناك مراجع أخرى تذكر مكان ولادته على غير هذه الصورة، فهي تشير إلى مكان آخر غير غرناطة، وإن كان يتصل بها بسبب، وهو «مطخشارش»[٢] ولقد وجدت نصاً لأبي حيان في البحر المحيط[٣] يذكر فيه أنه أخذ القراءات على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن عبد الله الأندلس الأنصاري بمطخشارش من حضيرة غرناطة. ويمكن التوفيق بين الروايتين السابقتين، الأولى التي تجعل غرناطة مكاناً لولادته، والثانية التي تحدد ذلك بمطخشارش، إذ إن مطخشارش ـ على ما يبدو ـ كانت مركزاً تابعاً لمدينة غرناطة، وكانت غرناطة عاصمة لمدن صغيرة حولها تابعة لها، فهي المركز الكبير الذي تتحلق حوله هذه المدن، وبتعبير آخر فهي العاصمة التي تتبعها مدن من حولها، فمن ذهب إلى أن أبا حيان ولد في غرناطة إنما أشار إلى الإقليم كله، لأن مملكة غرناطة كانت قد تكونت في ذلك الوقت، وتحددت أطرافها، وعرفت معالمها،

---

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٣١) وغاية النهاية (٢٨٥) والنجوم الزاهرة (١٠/ ١١١) ودائرة المعارف الإسلامية (١/ ٣٣٢).

(٢) شذرات الذهب (٦/ ١٤٥) وطبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦) وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠) وذيل تذكرة الحفاظ (٢٣).

(٣) البحر المحيط (١/ ٧).

ولمع اسمها في الأندلس بعد انهيار ما حولها من مراكز المسلمين، فذِكر ولادته في غرناطة شيء معقول ومقبول.

وأما من ذهب إلى غير ذلك محدداً المكان بقوله «مطخشارش» فقد كان أكثر دقة من سواه، والنص الذي وصلنا عنهم في ذلك صريح لا يحتمل التأويل ولا المناقشة، وفيه زيادة فائدة ينبغي أن يُؤْخَذ بها، وهي متفقة فيما بينها على أن «مطخشارش » مدينة من حضيرة غرناطة، ويرى بعضهم أنها من أحياء غرناطة نفسها(١)، وهو رأي مرتجل.

تاريخ ولادته:

قال أبو حيان في البحر:(٢) (وما زال يختلج في ذكري ويعتلج في فكري أني إذا بلغت الأمد الذي يتغضد فيه الأديم، ويَتَنَغَّض برؤيتي النديم، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب، والمقول فيه: إذا بلغ الرجل الستين فإيَّاه وإيَّا الشواب(٣)، ألوذ بجناب الرحمن، واقتصر على النظر في تفسير القرآن، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد، وبلَّغني ما كنت أروم من ذلك القصد، وذلك بانتصابي مدرساً في علم التفسير من قبَّة السلطان الملك المنصور ، قدَّس الله مرقده. . . . وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمئة، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري، فعكفت على تصنيف هذا الكتاب).

هذا نص أبي حيَّان سقته على طوله منطلقاً منه في بيان سنة ولادته، وإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة فأسقطنا ستاً وخمسين سنة قد قطعها من عمره من التاريخ الذي عُيِّن مدرساً وشرع بتأليف كتابه (البحر) وهو سنة عشر وسبعمئة فإنَّا نجد أن تاريخ ولادته كان سنة أربع وخمسين وستمئة.

وتتَفق المصادر على هذا التاريخ، فقد ذكر ابن حجر: أنه ولد في

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣١٤) وأبو حيان النحوي لخديجة الحديثي (٣١).

(٢) البحر المحيط (١/ ٣).

(٣) وردت هذه العبارة في كتاب سيبويه (١/ ١٤١) وانظر سر الصناعة (١/ ٣١١ ـ ٣١٣).

أواخر شوال سنة أربع وخمسين وستمئة، وذهب إلى مثل هذا الداوودي في (الطبقات) والشوكاني في (البدر)[1].

وقد لاحظنا أن ابن حجر حدد موعد ولادته بالعشر الأواخر من شوال في السنة المشار إليها، وذهب هذا المذهب ابن تغري بردي، والسيوطي[2]، ولم يفعل ذلك كل من ترجم له.

ولم يخرج على هذه الاجماع غير مرجع واحد[3]؛ ذهب إلى أنه ولد سنة اثنتين وخمسين وستمئة، وهذا خبر آحاد، وفيما تقدم من أدلة ما يرده.

ومما لا شك فيه أنه كان لولادته بمطخشارش أثر في نشأته الأولى وثقافته التي حَصَّلها في مقتبل العمر، غير أني لم أجد عند المؤرخين بياناً واضحاً في ذلك، وكل ما وجدته: إنما هو نص عند أبي حيان نفسه جعلني أذهب هذا المذهب.

قال أبو حيان:[4] (وقد قرأت بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على الخطيب أبي جعفر أحمد بن علي بن عبد الله الأنصاري الوادي تشبثي بمخطشارش من حضرة غرناطة).

صحيح أن أبا حيان لم يُعْرَف باسم هذه المنطقة كما عُرِف بالغرناطي، ولكنه مع ذلك ذكرها على أنها مركز من المراكز التي كان لها فضل عليه، فيما حصَّله في المرحلة الأولى من عمره، وهذا خبر يردُّ رأي الباحثة الفاضلة[5]إذا ذهبت إلى أنه لم يكن لـ(مطخشارش) أثر في حياته، ولم يُعْرَف بها.

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧٠) وطبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦) و(البدر الطالع ٢/ ٨٨).
(٢) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١١) وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٣) التعليقات السنية على الفوائد البهية (ص: ١٩٥).
(٤) البحر (١/ ٣).
(٥) أبو حيان النحوي (٣٢).

أبـواه:

لم أجد كتب التراجم التي رجعت إليها نصاً يذكر شئياً عن والد أبي حيان، وكذلك الحال بالنسبة لأمه، ولقد فكرت طويلاً في أمره محاولاً أن أخرج بحديث عنه يلقي الضوء على والد هذا العالم الجليل، ومن ثمَّ بيان أثره في ولده، ولم أجد ما يعينني على ذلك، غير أني وقعت على نص في كتاب (النهر المادّ في البحر) يمكن أن يبين لنا جانباً من جوانب حياة أبيه، فقد قال أبو حيان في معرض الحديث عن قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧][١]:

(يقال: نزفت الشارب الخمرُ، وأنزف هو، أي: ذهب عقله، من السُّكْر، فهو نزيف ومنزوف، ... قال: أبو حيان، قال سيدي ووالدي: قرأت على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير-[٢]رحمه الله تعالى - في قصيدة علقمة بن عبدة قوله[٣]:

تشفي الصُّداع ولا يؤذيك طالبها[٤] ولا يخالطها في الرأس تدويم)

ويستشف من هذا النص أن والده كان يطلب العلم مثل أهل بلده، وأنه تتلمذ على أبي جعفر بن الزبير، وقد يكون هو الذي وجَّه ولده(أبا حيان) إليه لتلقي العلم على يديه.

أما أمه وإخوته فلا سبيل إلى معرفة شيء عنهم، ولا نعلم إن كان له إخوة أم لا.

* * *

---

(١) البحر (٧/ ٣٥٨) والنص من النهر.

(٢) أستاذ أبي حيان.

(٣) انظر ديوان علقمة (٦٩).

(٤) برواية: (صالبها) أي: الصداع، وما في البحر تحريف، وعلقمة شاعر جاهليّ.

نشأته الأولى
ودراسته فيها

لا شك أن أبا حيَّان بدأ ـ بعد أن شبَّ وترعرع ـ يرى من حوله حركة علمية نشيطة، وعلماء كثيرين يعقدون الحلقات العلمية في أماكن مختلفة من مملكة غرناطة الفتيَّة.

وكان في تلك الحلقات دراسة للقرآن، والحديث، والفقه، والنحو والصرف، واللغو، والأدب، كانت حركة علميَّة لمع فيها أسماء عدد كبير من العلماء، وتناقل أخبارهم الناس حتى بلغت مصر، والشام، والعراق، وتحدَّث الناس بسيرتهم في كل مكان.

في هذا الجو العلمي نشأ أبو حيَّان، فكان لذلك تأثير في اتجاهه والمسار الذي انطلق فيه.

ولا أدري متى بدأ يطلب العلم، فإنه لم يأتنا نصٌّ عن السابقين يحدد أوَّلية ذلك، إلا أني وجدت إشارة غير دقيقة من ابن الجزري لهذا الأمر؛ إذ قال: [١] «وأول قراءته سنة سبعين وستمئة: قرأ السبع ببلده على عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري».

وهذا النص لا نستطيع الاعتماد عليه في جعل العام المشار إليه بداية لطلب العلم عند أبي حيَّان، إذ يكون قد بلغ من العمر حيئذ ستة عشر

(١) غاية النهاية (٢/ ٢٨٥).

عاماً، فلا يعقل أن ينتظر هذه الفترة الطويلة بدون دراسة وتعلم.

لقد جرت عادة المسلمين في كل مكان: أنه متى عقل الصبي، وبلغ الخامسة من عمره، أو أكثر من ذلك بقليل أن يوجهه أبوه إلى حفظ القرآن والحديث، ودراسة علوم العربية التي تعينه على فهم القرآن و الحديث.

ولعلَّ ابن حجر إنما أراد في النص السابق أن يوضح لنا: أن أبا حيان بدأ بقراءة القرآن على القراءات المختلفة في ذلك العام، إذ قال: «إنه قرأ السبع ببلده» فإن كان المراد من مجمل النص البداية بالقراءات في هذا التاريخ؛ فذلك أمر معقول: إذ يكون قد بدأ بالقراءات بعد أن قطع مرحلة من عمره في تلقي العلوم الأولية التي لا بدَّ منها لطالب العلم كدراسة اللغة، والنحو، والحديث، والتفسير وغير ذلك.

وقد ذكر السابقون أنه سمع على الكثير من علماء الأندلس، قال المقري[١]: «نشأ في غرناطة، وقرأ بها القراءات، والنحو، واللغة، وسمع أيضاً بالمالقة، والمرية، والجزيرة الخضراء، وجبل الفتح».

وقال ابن تغري بردي[٢]: «قرأ القرآن بالروايات، واشتغل وسمع الحديث بالأندلس».

وقال الشوكاني[٣]: «وتلا القراءات إفراداً وجمعاً[٤] على مشايخ الأندلس وسمع الكثير بها».

هذه مجموعة من النصوص تشهد لأبي حيَّان بدراسة جادة قام بها في مطلع عمره، وكان لها ثلاثة اتجاهات: القرآن وعلومه، الحديث وما

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٤) وقد نقل المقري هذا عن الصفدي، وانظر ذيل تذكرة الحفاظ: (٢٣).
(٢) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١١).
(٣) البدر الطالع (٢/ ٢٨٨) وانظر طبقات الشافعية (٦/ ٣١) وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٥).
(٤) بيان المراد بإفراد القراءات وجمعها يأتي في بحث القراءات، وهو الفصل الثالث من الباب الثاني.

يتعلق به، ثم بعد ذلك اللغة العربية وما يتبعها من نحو وأدب.

أما أبو حيان نفسه فقد تحدث عن ذلك في «البحر» فقال: «وقد قرأت القرآن بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على الخطيب أبي جعفر أحمد بن علي بن محمد الرعيني ـ عرف بابن الطباع ـ بغرناطة، وعلى الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري (بمطخشارش) من حضرة غرناطة، وعلى غيرهما بالأندلس»[1].

أما التفسير: فقد أخذه عن ابن النقيب، قال أبو حيان: «واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير) من جمع شيخنا الصالح القدوة والأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن المقدسي عرف بابن النقيب رحمه الله تعالى؛ إذ هو أكبر كتاب رأيناه صُنِّف في علم التفسير، وهذا الكتاب روايتي بالإجازة من جامعه»[2].

ومن شيوخه في التفسير: أبو جعفر بن الزبير أيضاً، قال أبو حيان: «فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله تعالى فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير مني عليه فيه وإجازة...»[3].

ولقد درس أبو حيان كثيراً من كتب اللغة، ودواوين الشعر، وحفظ كثيراً من شعر المتقدمين، ويبدو أثر هذه الدراسة واضحاً في كتابه (البحر المحيط) أكثر من أي كتاب آخر من مؤلفاته؛ إذ هو من أواخر هذه المؤلفات.

وأوضح أبو حيَّان أسلوبه في دراسة اللغة فقال[4]: «... وقد حفظت

---

(١) البحر المحيط (١/ ٧) وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٢) البحر المحيط (١/ ١٠)وانظر (٥/ ١٨٧).
(٣) البحر المحيط (١/ ١٠) وانظر أيضاً (١/ ٣٦).
(٤) البحر المحيط (١/ ٦).

في صغري في علم اللغة كتاب (الفصيح) لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، واللغات المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة: امرىء القيس والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة، وديوان الأفوه الأودي لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين، وحفظت كثيراً من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب (الحماسة) واللغات التي تضمنتها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك».

وأما في النحو: فقد أخذ هذ الفن عن الأستاذ العلامة أبي جعفر أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الثقفي، وذلك من كتاب سيبويه، قال أبو حيان: «.. وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره»[1] كما درس النحو على أبي الحسن علي بن محمد الأبذي، وابن أبي الأحوص[2].

وأما البلاغة: فقد كان أستاذه فيها ابن الزبير أيضاً، قال أبو حيان: «وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى»[3].

وأما علم الأصول: فقد كان له فيه أكثر من شيخ، قال أبو حيان[4]: «بحثت في هذا الفن في كتاب (الإشارة) لأبي الوليد الباجي[5] على الشيخ الأصولي الأديب أبي الحسن فضل بن إبراهيم المعافري؛ الإمام بجامع غرناطة والخطيب به.

---

(١) البحر المحيط (١/ ٦) وانظر أيضاً (١/ ١٠).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٢٣) ونفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٣) البحر المحيط (١/ ٦).
(٤) البحر المحيط (١/ ٦).
(٥) هو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي، ولد سنة (٤٠٣ هـ). انظر تذكرة الحفاظ (١١٧٨).

وعلى أستاذنا العلامة أبي جعفر بن الزبير في كتاب الإشارة، وفي شرحه له، وذلك بالأندلس».

قال ابن حجر[١]: «وقرأ شيئاً من أصول الفقه عن أبي جعفر بن الزبير في الإشارة للباجي، ومن (المستصفى)[٢]، وقرأ في أصول الدين على ابن الزبير أيضاً».

ولم يكن أبو حيان يقيم في مكان واحد يتلقى فيه علوماً مختلفة بل كان ينتقل في البلاد، فقد أخذ العلم في «مطخشارش» مسقط رأسه كما رأينا، وفي غرناطة، ومالقة[٣]، وبلش، والمرية، والجزيرة الخضراء وغيرها من المواضع، ويبدو أن غرناطة كانت المركز الرئيسي بالنسبة له، ومنها يتجه إلى البلاد الأخرى ثم يعود إليها.

هذه جملة من العلوم درسها في هذه الفترة المبكرة، وبرع فيها، ولم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره.

ويبدو أن شهرته قد بدأت تنتشر في البلاد، وأنه أنس من نفسه القوة، وأحس أنه أحاط بعلوم كثيرة وتعمق فيها، وأنه قارب شيوخه فيها، وأنه لا يقل عنهم، فأخذ يتصدى للرد عليهم، ومنهم ابن الطباع، وابن الزبير، ونشب بينه وبينهم خلاف كبير أوشك أن يصيبه بسببه أذى كبير.

قال المقري: «.. كان أثير الدين أبو حيَّان نسيج وحده في ثقوب الذهن؛ وصحة الإدراك، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير، وطريق الرواية، إمام النحاة في زمانه غير مدافع، نشأ في بلدة غرناطة مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك وتغبير السوابق في مضمار التحصيل»[٤].

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧٥).
(٢) للإمام الغزالي.
(٣) ذكر في البحر: (٥/٢٦)، أنه قرأ على القاضي العالم أبي علي الحسن بن عبد العزيز ابن الأحوص القرشي بمدينة مالقة.
(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٣٧).

أما تأليفه في هذه الفترة المبكرة: فغير مؤكد، فقد ذكر المقري[1] أن له كتاباً اسمه (الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع) غير أني لم أجد ذكراً لهذا الكتاب في غير هذا المصدر، ولم يذكره أبو حيان نفسه في مجموعة مؤلفاته، ولقد جاءت عبارة المؤرخين، وفيها شيء من العموم والإبهام، تذكر أنه تصدّى للتأليف والرد على واحد من شيخين من شيوخه ذهب بعضهم إلى أنه ابن الزبير، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه ابن الطباع.

لقد ذكر أبو حيان: أنه ألف مؤلفاته في القاهرة، ولو كان له شيء قبل ذلك لكان أشار إليه قال: «. . . وأرتحل من بلد إلى بلد حتى ألقيت بمصر عصا التسيار، وبها صنفت تصانيفي، وألفت تآليفي، ومن بركاتها علي تصنيفي لهذا الكتاب»[2].

ويذهب المقري في موضع آخر[3] إلى أن أبا حيَّان تصدَّى للتأليف، والرد على أستاذه ابن الزبير، غير أنه لم يذكر اسم الكتاب الذي صرَّح به فيما سبق، ولم يبين طبيعة ذلك التأليف، وقد جاء مثل ذلك، عند السيوطي، قال: «وكان سبب رحلته عن غرناطة: أنه حملَته حدة الشبيبة على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير وقعة فنال منه، وتصدى للتأليف في الرد عليه، وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان. . .)[4].

وذكر ما يشبه هذا: الشوكاني[5] أيضاً، وليس في هذه النصوص أية إشارة لذلك الكتاب الذي جاء ذكره عند المقري، فلا أدري من أين أخذ هذا.

---

(١) نفح الطيب (١/ ٣٤١).
(٢) البحر المحيط (١/ ٤).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٣٨).
(٤) بغية الوعاة (١/ ٢٨١).
(٥) البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).

لقد بينت في هذا الحديث ثقافته الأولى التي حصلها في الأندلس قبل خروجه منها، وبينت العلوم التي حصلها، وذكرت بعض شيوخه الذين تلقى عنهم ما اكتسبه من علم، ولننتقل معه خطوة أخرى لنتعرف ما كان من أمره بعد هذه المرحلة.

* * *

المرحلة الثانية
الارتحال

أسباب خروجه من الأندلس:

يذكر المؤرخون أن سبب خروجه من الأندلس: هو ما حصل بينه وبين شيوخه من خلاف في الرأي، ونزاع في مسائل علمية.

فقد ذكروا: أنه دفعته حدَّة الشباب، وعنفوانه لأن يتصدى للتأليف، والرد على أحد شيوخه، فاستعظم شيخه ذلك، ووجد فيه نكراناً للجميل يستحق معه التأديب، فرفع أمره إلى الحاكم مستعيناً به على عقوق تلميذه، فاستجاب له، وكان الحاكم في هذه الفترة (أبو محمد الفقيه) الذي تولى الحكم في غرناطة بعد وفاة أبيه ابن الأحمر، وكان ذلك عام واحد وسبعين وستمئة.

قال المقري: «قال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: ونالته نَبْوَة لحق بسببها بالمشرق»[1].

وقال في موضع آخر: «إن أبا حيَّان حملته حدة الشبيبة على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير وحشة؛ فنال منه، وتصدَّى للتأليف في الرد عليه، وتكذيب روايته، فامتعض له، ونفذ الأمر بتنكيله، فاختفى ثم أجاز البحر مختفياً، ولحق بالمشرق يلتفت خلفه»[2].

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٣٧).

(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٣٨).

وقال المقري في موضع ثالث: «وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبي حيان عن الأندلس أنه نشأ شرٌّ بينه وبين شيخه أحمد بن علي بن الطباع، فألف أبو حيَّان كتاباً سماه (الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع) فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعو بالفقيه، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه، فنشأ شرٌّ عن ذلك»[1].

وأما الداودي فقد ذكر أن الخلاف كان مع شيخين من شيوخه هما: ابن الطباع، وابن الزبير معاً، وأن ابن الزبير هو الذي رفع الأمر إلى السلطان، وليس ابن الطباع كما ذكر نص المقري الأخير، قال الداودي: «وكان سبب رحلته عن غرناطة أنه حملته الشبيبة على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير واقعة، فنال منه، وتصدَّى للتأليف في الردِّ عليه، وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان فأمر بإحضاره وتنكيله، فاختفى، ثم ركب البحر ولحق بالمشرق»[2].

وذكر السيوطي[3] رواية شبيهة برواية الداودي، وكذلك فعل ابن حجر[4]، وإلى مثل هذا ذهب الشوكاني[5] فيما روى.

ولم يكتف السيوطي بعرض هذا الخلاف مع شيخيه، ولكنه ساق مع هذا خبراً آخر في بيان سبب خروجه من الأندلس، فقال: «قلت: ورأيت في كتابه (النضار) الذي ألفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته أنه مما قوَّى عزمه على الرحلة من غرناطة: أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والرياضي والطبيعي قال للسلطان: إني كبرت وأخاف أن أموت،

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٤١).
(٢) طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٨).
(٣) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٤) الدرر الكامنة (٥/ ٧٠).
(٥) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).

فأرى أن ترتب لي طلبة أعلمهم هذه العلوم لينفعوا السلطان من بعدي.

قال أبو حيان: فأشير إليّ أن أكون من أولئك، ويرتَّب لي راتب جيد وكُسا وإحسان، فتمنعت، ورحلت مخافة أن أُكْره على ذلك»[1].

ولقد وجدت هذا النص عند الداودي في (الطبقات)[2] كما نقل ابن العماد الحنبلي[3] النص نفسه عن السيوطي.

هذان سببان وردا عن المتقدمين في تعليل هذه الرحلة، وبيان سبب مغادرته الأندلس.

- أما السبب الأول: فيحصر الخلاف بينه وبين اثنين من شيوخه، الأول أبو جعفر بن الطباع، والثاني: أبو جعفر بن الزبير، غير أنه من سياق النصوص التي عرضتها يبدو لنا، أن هناك خلافاً حول من رفع أمره إلى السلطان أبي عبد الله محمد الفقيه.

فهناك نص عن المقري فريد وحيد يجعل الخلاف مع ابن الطباع وحده، يشير إلى كتاب ألِّف في الرد عليه، ثم يذكر بأنه هو الذي ضاق ذرعاً بتلميذه، فرفع أمره إلى السلطان طالباً إنصافه منه.

غير أن رواية ثانية من المقري تؤيدها رواية الداودي والسيوطي، والشوكاني، وابن حجر تجعل الخلاف مع اثنين: ابن الزبير، وابن الطباع؛ إلا أنها تذكر أن ابن الزبير هو الذي رفع أمره إلى السلطان. وليس ابن الطباع، ولعل هذا هو الأرجح لأنه خبر كالمتواتر؛ ولذلك يؤخذ به لكثرة المصادر التي أثبتته، ويُطَّرح ما عداه.

وأما السبب الثاني للرحلة فهو ما ذكره أبو حيان في (النضار) من أنه خاف أن يُكْره على دراسة الفلسفة والمنطق، وقد رأيناه فيما سلف عند

---

(١) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٢) طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٨).
(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٤٦).

السيوطي والداودي وغيرهما، وهذا يؤكد: أن الرحلة لم يكن سببها الوحيد ما أشيع بين الناس من أنها وقعت بسبب ما نشب من خلاف بينه وبين شيخيه، وأن خوفه من التنكيل هو الذي حدا به إلى الخروج من الأندلس فراراً بجلده.

إذاً هناك سبب آخر ذكره أبو حيان، يعرفه السلطان، ويجهله كثير من الناس، ولذلك قل وروده في كتب التراجم، ولولا أن أبا حيان صرَّح به، ونقله عنه السيوطي لبقي سراً مطوياً لا يعلمه إلا الله.

وهناك سبب ثالث لم يذكره المؤرخون، ويبدو أن أبا حيان لم يشأ أن يصرح به ويعلنه على الناس، وأنا لا أجزم به غير أني أميل إليه، فربما كان دافعاً لأبي حيان للارتحال إلى المشرق، فقد جرت عادة العلماء الارتحال من المشرق إلى الأندلس، ونحن نذكر ما كان من أمر أبي علي القالي وغيره من العلماء، كما جرت العادة أن يرتحل علماء الأندلس إلى المشرق، لقد رحل كثير منهم كابن مالك الجياني وغيره، وإذا أردت أن تعرف خبراً مفصلاً عن هؤلاء العلماء وسيرهم فعليك بكتاب «نفح الطيب»[1] حيث أحصى «المقري» في الجزء الثالث من كتابه عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء ممن ارتحل إلى الأندلس، أو ارتحل إلى المشرق، وترجم له، وبيَّن المواضع التي زاروها، والأمكنة التي استقروا فيها، والعلماء الذين ناقشوهم أو جادلوهم أو تلقوا على أيديهم.

لقد وجد أبو حيان غيره من العلماء يرتحلون في سبيل العلم شرقاً وغرباً، فما الذي يمنعه من أن يجري على سنة سَنّها غيره من القدماء والمعاصرين؟ لم لا يرحل إلى مصر والشام وبغداد والحجاز ويرى في هذه البلاد العلماء وحلقاتهم، ويستكمل ثقافته التي حصلها في موطنه الأول؟

لقد حاك هذا في صدره، ولا أشك أنه سيطر على نفسه زمناً غير

---

(١) انظر نفح الطيب (٢/ ٢١٣) وكذلك الجزء الثالث، والرابع (من ص ١ ـ ١٤٦).

قصير، فلما كان من أمر الخلاف مع شيخه ما كان، وخوفه من أن يُكْره على دراسة الفلسفة والمنطق وجد أن عليه أن يغادر الأندلس.

لقد كانت هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة دافعاً قوياً دفع بأبي حيان في هذه الرحلة الطويلة التي قطع فيها مسافات شاسعة، وزار بلاداً نائية مختلفة، وقضى فيها زمناً غير قصير يبحث عن المكان المناسب الذي يصلح للاستقرار، أما السببان الأولان: فواحد عُرف بين الناس، واشتهر أمره، إذ لم يكن الخلاف سراً بين اثنين، وأما الثاني: فقد صرَّح به أبو حيَّان، ولعل السبب الثالث كان كامناً في نفسه لم تسمح أن تشهره؛ لأنه يوم وضع كتابه (النضار) كان قد بلغ في عمله الغاية التي ما بعدها غاية، وفاق من حوله، وبلغ خبره القاصي والداني، الأندلس، والمغرب، ومصر، والشام، والعراق، فلم يشأ التصريح بما كان يدور في نفسه أيام الطلب وقد مضت.

وهناك سبب رابع نجده عند الدكتورة خديجة الحديثي، إذ تذهب إلى أن أبا حيَّان رحل عن الأندلس طلباً للسعة في الرزق[1]، وهذا غير صحيح؛ إذ لا دليل عليه، ولا مرجح له، يضاف إلى ذلك ما عرف عنه، وسيرة حياته في القاهرة التي تدل على قناعته، ورضاه بالقليل، بل وجدناه، ينعى على المسرفين إسرافهم وتبذيرهم، وكان يزهد الناس بالمال، وسوف يأتي بيان ذلك.

بداية الرحلة:

النصوص التي وصلت إلينا عن المتقدمين لا تتفق على تاريخ واحد يبيّن السنة التي خرج فيها أبو حيان من الأندلس، فهناك ثلاثة أخبار حول هذا الأمر.

أما الأول: فقد ذكره الحافظ شمس الدين محمد بن علي الدمشقي،

---

(١) انظر: أبو حيان النحوي (ص٣٢).

وأخبر فيه أن خروج أبي حيَّان من الأندلس وقع **سنة سبع وسبعين وستمئة** يقول في ذلك: «. . . ثم ارتحل عن الأندلس في أول سنة وسبع وسبعين، وسمع بسبتة وبجاية وتونس والإسكندرية، وقرأ بها القراءات أيضاً، وحج في هذه السنة؛ فسمع بمكة، ورجع إلى جدة وسمع بها، وبعيذاب وقوص، **ثم قدم مصر في سنة ثمانين وستمئة**. . »[1].

وأما الخبر الثاني: فقد أخبر به المقري[2]، وذكر فيه أنه خرج من الأندلس سنة تسع وسبعين وستمئة، وذكر مثل ذلك السيوطي في ترجمة (ابن حبيش) قال: «. . . محمد بن يوسف بن حَبيش بفتح الحاء أبو بكر الأديب العالم البارع النحوي من شيوح أبي حيَّان، كان حياً بتونس **سنة تسع وسبعين وستمئة، وهذه هي السنة التي خرج بها أبو حيَّان من الأندلس**. . . »[3].

أما الخبر الثالث: فيذكر أن أبا حيان «بارح الأندلس سنة ٦٧٨ هـ، وطاف بنواحي المغرب»[4].

ونحن هنا أما هذه النصوص الثلاثة لا نملك رد واحد منها إلا إذا وُجدت في مقاله نصوص أخرى تبطله، وتسقط الاحتجاج به.

ولقد استعنت على ذلك بتاريخ دخوله إلى مصر، وبتقدير الفترة الزمنية التي قد يحتاجها مسافر بطيء الخطا، خرج من الأندلس إلى المغرب، ثم أخذ يطوف في أنحائه ويلتقي أشياخ القوم، ويجلس في حلقاتهم، ثم تابع سيره حتى وصل تونس فالإسكندرية، ومنها إلى الشام والحبشة والحجاز والسودان إلى أن استقر في مصر أخيراً.

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ (٢٣ ـ ٢٤).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٤١).
(٣) بغية الوعاة (١/ ٢٧٦).
(٤) تاريخ الفكر الأندلسي (١٧٨).

جاء في طبقات الشافعية[١] أنه قدم مصر قبل سنة ثمانين وستمئة، ويذكر ابن حجر في الدرر[٢] أنه قدم مصر سنة تسع وسبعين وستمئة، أما شمس الدين محمد الدمشقي[٣] فيذكر أنه قدم سنة ثمانين وستمئة.

فلو أخذنا بنص المقري والسيوطي اللذين يحددان تاريخ خروجه بعام تسعة وسبعين وستمئة لكان ذلك يعني: أن تاريخ خروجه من الأندلس هو العام نفسه الذي دخل فيه مصر واستقر فيها، وهذا أمر غير معقول، فالمدة غير كافية، مع توقفه وأخذه عن العلماء.

ويبقى أمامنا خبران:

الأول: يحدد تاريخ خروجه من الأندلس بسنة سبع وسبعين وستمئة.

والثاني: يجعله عام ثمانية وسبعين وستمئة، ولا نستطيع هنا ترجيح واحد منهما فكلاهما محتمل، لأن الفترة الفاصلة بين تاريخ خروجه من الأندلس، وتاريخ دخوله إلى مصر تتسع لمثل هذه الرحلة الطويلة، وتلك الدراسة التي كان يحرص عليها في البلاد المختلفة التي كان ينتقل في أرجائها.

في المغرب وتونس:

كان من الطبيعي أن يكون أول بلد يخطو فيه أبو حيان الخطوة الأولى هو المغرب، وكان في المغرب علماء معروفون، لهم قدرهم في مجالات علمية مختلفة، وكانت الحركة العلمية في العالم الإسلامي نشيطة في تلك الفترة على الرغم من سوء أحواله السياسية.

ويذكرون أن أبا حيان اجتمع بكثير من علماء المغرب وتونس، وسمع

---

(١) طبقات الشافعية (٥/ ٧٠).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٧٠).
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ.

منهم، وطاف بنواحي المغرب، وسمع بسبتة، وبجاية وتونس[1]، وعرف طبقات المغاربة معرفة جيدة، وقد أشار إلى ذلك المقري فيما نقله عن الصفدي فقال: «وكانت له اليد الطولى في التفسير والحديث، والشروط والفروع، وتراجم الناس، وطبقاتهم، وحوادثهم وخصوصاً المغاربة، وتغيير أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة وترقيق وتفخيم؛ لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج، وأسماؤهم قريبة من لغاتهم، وألقابهم كذلك، وقيده وحرره»[2].

ونجد مثل هذا الخبر عند ابن العماد الحنبلي وابن تغري بردي[3].

هذا وتذكر المراجع أنه تلقى العلم على كثير من شيوخ المغرب، وسيظهر ذلك جلياً في أثناء حديثنا عن شيوخه.

ويبدو: أن أبا حيان كان مهتماً بدراسة الحديث في المغرب، إذ عرف عن علماء المغرب علوّ الإسناد، وقوّة الحفظ، ولذلك جاء الخبر عنه في مراجع كثيرة أنه درس الحديث في المغرب، قال السيوطي: «وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية والمغرب»[4].

ويذكر من ترجم له أنه شهر خلال تنقله في المغرب، وأن هذه الشهرة قد مكّنته من أن يعقد الحلقات العلمية في حياة شيوخه بالمغرب... قال السيوطي: «... وتقدم في النحو، وأقرأ في حياة شيوخه بالمغرب»[5].

ولم يكن أبو حيان يستقر في مكان واحد طويلاً وإنما كان ينتقل في مدن مختلفة، ويجلس في حلقات لها طوابع متباينة، ليسمع الجديد في

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ: (٢٣).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٢٩٤).
(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١٠/ ١١١).
(٤) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠) وانظر طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦) شذرات الذهب (٦/ ١٤٥) ومعجم المؤلفين (١٢/ ١٣٠).
(٥) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).

كل مجلس، وليحصل على ما فاته إدراكه في الأندلس، فلم يقم بفاس مثلاً غير ثلاثة أيام، قال المقري: «وذكر أبو حيان أنه لم يقم بفاس إلا ثلاثة أيام أدرك فيها أبا القاسم المزياتي»[١].

ويبدو أن أبا حيَّان لم يكن سعيداً في إقامته في المغرب، ويحملنا على هذا الزعم قصر مدة إقامته فيها أولاً، وما رواه من وصية شيخه محمد بن علي الشاطبي، مما يوحي بعدم ارتياحه في المغرب، وإن لم يُصرح بذلك، فروى عن شيخه قوله[٢]:

وأوصاني الرضيّ وصاة نصح ... وكان مهذَّباً شهماً أبيا
بأن لا تحسنَنْ ظناً بشخصٍ ... ولا تصحبْ حياتَكَ مغربيا

ـ في الإسكندرية:

كانت الإسكندرية المحطة الثانية بعد خروجه من تونس، فوصل إليها، وأقام فيها مدة غير محدودة، تلقى فيها العلم على بعض شيوخها المعروفين، ودراسته كانت في قراءات القرآن في غالب الأحيان، وقد سمع بالإضافة إلى ذلك الحديث[٣]، ولم ينقل في أخباره أنه درس النحو، أو علماً من العلوم الأخرى.

وتذكر المصادر: أنه تتلمذ فيها على عبد الوهاب بن حسن بن الفرات، وعلى عبد النصير بن علي بن يحيى المريوطي[٤]، وقد أشار إلى ذلك أبو حيان نفسه في البحر[٥]، ولم أقف على ذكر شيخ آخر له غيرهما في الإسكندرية.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٤١).
(٢) بغية الوعاة (١/ ١٩٤) وانظره ص(٢٨٣).
(٣) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٤) ذيل التذكرة (٢٣) وطبقات الشافعية (٦/ ٣١) وغاية النهاية (٢/ ٢٨٥) والدرر الكامنة (٥/ ٧٠).
(٥) البحر المحيط (١/ ٧ و٥/ ٢٦).

الشام والحجاز:

جاءت الأخبار عن أبي حيان: أنه بعد إقامته في الإسكندرية فترة من الزمن زار الشام، والحجاز، والحبشة، والسودان قبل استقراره في مصر، غير أني لم أستطع أن أحدد خط سيره بناء على الأخبار التي بين يدي؛ إذ هي ترسم له طريقين اثنين:

الخط الأول: الأندلس ـ سبتة ـ بجاية ـ تونس ـ الإسكندرية ـ الشام ـ السودان ـ الحبشة ـ الحجاز ـ الشام ـ مصر.

الخط الثاني: الأندلس ـ سبتة ـ بجاية ـ تونس ـ الإسكندرية ـ الشام ـ الحجاز ـ السودان ـ الحبشة ـ مصر.

فقد جاء في «تاريخ الفكر الأندلسي» قوله[1]: «وقد بارح أبو حيان الأندلس في سنة (٦٧٨) وطاف بنواحي المغرب ومصر، ووصل إلى الحبشة، ثم حج إلى بيت الله الحرام وتوجه بعد ذلك إلى الشام...».

ومن هذا النص يتضح لنا أنه اتجه إلى الحجاز أولاً، ثم بعد ذلك اتجه نحو الشام يكمل رحلته.

أما السيوطي فقد قال: «وسمع الحديث بالأندلس، وإفريقيَّة، والإسكندرية، ومصر، والحجاز من نحو أربعمئة وخمسين شيخاً»[2].

ونجد مثل هذا الخبر عند الداودي[3]، وابن تغري بردي[4]، وابن العماد الحنبلي[5].

وهذا النص ينقل أبا حيان من الإسكندرية إلى بقية الأقطار في مصر،

---

(١) صفحة (١٨٧).

(٢) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).

(٣) طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦).

(٤) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١٠).

(٥) شذرات الذهب (٦/ ١٤٥).

ثم ينتهي به إلى الحجاز دون أن يشير إلى أنه ذهب إلى الشام، بل يذهب ابن تغري بردي في خبره إلى انتقاله من القاهرة إلى الحجاز، ثم يقول في آخر الخبر[١]: «. . . وحصل الإجازات من الشام والعراق».

وهذا نص صريح منه في أن أبا حيان لم يذهب إلى الشام، وإنما جاءته الإجازة منها ومن العراق.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الدلالة قائمة على اتصال أبي حيان بالشام وعلمائها قال: في مقدمة كتاب (التكميل في شرح التسهيل): «. . . ومع ذلك فطالما سألني سائلون من أهل مصر والشام في باقيه وتكميله، وانتقاده وتذييله. . . »[٢].

في السودان والحبشة:

عرفنا مما سلف أن أبا حيَّان مرَّ بالسودان سواء اتجه من الإسكندرية مباشرة إلى الحجاز أو اتجه إلى الشام ثم الحجاز؛ إذ لا بد له من كلتا الحالتين من المرور بالسودان، وثمة أخبار وآراء تؤيد هذا[٣].

* * *

(١) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١١).

(٢) التذييل والتكميل (مخطوط) (٢ ـ ٤).

(٣) انظر: ذيل التذكرة (٢٣) ونفح الطيب (٣/ ٣٣٩) وتاريخ الفكر الأندلسي (١٨٧).

المرحلة الثالثة
مرحلة الاستقرار في مصر

تقدّمت الإشارة إلى أن دخول أبي حيان مصر كان سنة (٦٨٠ هـ) أو قبلها بقليل، وكانت مصر هدفه للإقامة فيها، وأشار إلى ذلك بقوله: «وأرتحل من بلد إلى بلد حتى ألقيت بمصر عصا التسيار»، ثم بيَّن الأسباب التي دفعته للإقامة فيها فقال: «فأقمت بها لمعرفة أُبديها، وعارفة علم أسديها، وثأي أرأبه، وفاضل أصحبه»[١].

ويذكر أبو حيان أن مؤلفاته التي وضعها إنما كانت في القاهرة، فقد أمضى الفترة السابقة في الطلب والارتحال.

قال أبو حيان: «وبها صَنَّفت تصانيفي، وألَّفت تآليفي، ومن بركاتها عليّ تصنيفي لهذا الكتاب المقرّب من رب الأرباب»[٢].

وتذكر الأخبار أنه قرأ في مناطق متفرقة في مصر، فقد قرأ في دمياط والمحلَّة، وطهرمس، والجيزة، ومنية ابن خصيب، ودشتا، وقنا، وقوس، وبلبيس[٣].

في القاهرة:

استقر أبو حيان في القاهرة، وبدأ طلب العلم، وقد تلقى ذلك على

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٤. والثأي: الفساد. ورأبُ الثأيِ: إصلاح الفساد.
(٢) البحر المحيط: ١/ ٤.
(٣) انظر نفح الطيب: ٣/٣١٦.

شيوخ معروفين ومشهورين، وعددهم كثير ـ قال الدمشقي ـ «وشيوخه في القاهرة ومصر كثيرون»[1].

وكانت مصر في ذلك الوقت موئل العلماء يتجهون إليها من شتى أقطار العالم الإسلامي ويقيمون فيها، فنشأ عن ذلك حركة علمية نشطة، وبرز عدد كبير من العلماء في علوم مختلفة، فعقدت الحلقات العلمية، وأقبل الناس عليها، ولعل في حديثي عن شيوخ أبي حيان فيما يأتي ما يدل على عظم هذه الحركة العلمية في ذلك العصر في مصر.

* * *

(١) انظر ذيل التذكرة (٢٣).

صفاته وأخلاقه

صفاته الجسدية:

قال الرعيني: «هو شيخ فاضل ما رأيت مثله، كثير الضحك والانبساط، بعيد عن الانقباض، جيد الكلام، حسن اللقاء، جميل المؤانسة، فصيح الكلام، طلق اللسان، ذو لمة وافرة، وهمة فاخرة، وله وجه مستدير، وقامته معتدلة التقدير، ليس بالطويل ولا القصير»[١].

ويذكرون أنه كان شديد البسط[٢]، وأنه كان مهيباً، جهورياً مع الدعابة والغزل، وطرح التسمت، مليح الحديث، لا يُمَلُّ وإن طال.

كما يذكرون أنه كان شيخاً حسن العِمَّة، مليح الوجه، ظاهر اللون، مشرب الحمرة، منور الشيبة، كبير اللحية، مسترسل الشعر فيها، ولم تكن كثة، وأنه كان طوالاً، حسن النعمة[٣].

خشوعه وتدينه:

كان أبو حيان رحمه الله رجلاً تقياً ديّناً ورعاً، وكان يخاف الله ويخشاه في كل ساعة من ساعات حياته، وكان سالم العقيدة ومن البدع المختلفة مما انتشر في عصره، واستشرى أمره من فلسفة وغيرها.

لقد نقل عنه أنه كان فيه ـ رحمه الله ـ خشوع، يبكي إذا سمع

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٢١).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٣٧).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٩٥)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠) وطبقات المفسرين (٢/ ٢٨٧).

القرآن[١]، ويذكر السيوطي شيئاً من هذا فيقول[٢]: «كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن»، ويذكر الشوكاني[٣] أنه كان كثير الخشوع والتلاوة والعبادة، كما ينقلون عنه أنه كان ديناً خيراً ثقة، معروفاً بالأمانة بين الناس[٤]. أضف إلى ذلك أنه كان صدوقاً فيما ينقل ويقول، لا يرتاب في ذلك أحد، ولا يطعن فيه خصم، حجة[٥] في الآراء التي يبديها في مختلف العلوم التي عُرِف بها بين الناس.

وأما الفلسفة والبدع فقد كان بعيداً عنها، تكرهها نفسه، وكان بعيداً عن الاعتزال والتجسيم، ويهاجم المعتزلة، في كل رأي من آرائهم، وسوف يتضح موقفه منهم فيما يأتي.

وكان متمسكاً بطريقة السلف، يقفو آثارهم ويتبع مسالكهم، ويأخذ بآرائهم، قال ابن حجر[٦]: (كان صدوقاً حجة، ثبتاً سالماً في العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم).

وقال في موضع آخر[٧]: (وكان عرياً من الفلسفة، بريئاً من الاعتزال والتجسيم، متمسكاً بطريقة السلف).

هذا مجمل الأقوال التي وردت عن السلف تتحدث عن تدينه وخشوعه، وسلامة عقيدته.

هذا أبو حيان تواترت الأخبار ـ كما ترى ـ تتحدث عن تقواه وورعه واستقامته، ولم أجد فيما اطلعت عليه ما يقدح في خلقه أو دينه، أو ينال من جانب من هذه الجوانب من لدن مولده حتى وفاته، هذا مع العلم أن

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٧).
(٢) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠) طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٨).
(٣) البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).
(٤) غاية النهاية (٢/ ٢٨٥).
(٥) الدرر الكامنة (٥/ ٧٣) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٦) الدرر الكامنة (٥/ ٧٣).
(٧) المصدر السابق (٥/ ٧٤).

كثيرين ممن كانوا حوله كانوا ينطوون على ضغينة تجاهه وضيق به، وكان ذلك يبدو من بعض الأخبار التي تذكر أن الناس كانوا يحتملونه، ويحتملون سلاطة لسانه على أولياء العصر ومدَّعي التقوى والصلاح، كانوا يحتملون ذلك لحاجتهم إلى علمه الذي عَزَّ عند غيره، وبسبب المكانة التي نالها في عصره.

اعتزازه بنفسه:

كان أبو حيان معتزاً بنفسه كل الاعتزاز، ويحق له ذلك، فقد كان يرى أنه قطع شوطاً في علوم مختلفة قصر فيها غيره، وانقطع الناس دونها في عصره، بل كان يعتقد أنه لا يثبت له أحد من معاصريه، ولذلك كنت أجد العبارات المختلفة التي تتردد على لسانه، معبرة عن هذا الإحساس الداخلي عنده، ومن هذه العبارات «قَلَّ من يعرف هذا!»، و«قلَّما تجد من يميز هذه الفروق الدقيقة»، وقس على هذا.

بُخْلُـــه:

يروى عن أبي حيان أنه كان بخيلاً، وأنه كان يفتخر بهذا البخل، وتروى له في ذلك أقوال وحكايات عن أصحابه، يبينون رأيه فيها، غير أنه على ما يبدو لم يكن هذا البخل متأصلاً في نفسه، ولا هو من طبعه، وإنما سبب ذلك أنه تقلب في بلاد شتى، ومرّ في بقاع مختلفة، وعانى خلال ذلك من الفقر والحاجة شيئاً كثيراً، فمن أجل ذلك كان يحرص على المال، ويشدّ يده عليه، ويدعو الناس إلى التقتير، وعدم الإسراف، لا حرصاً على المال من أجل المال، إذ لم يُنقل عنه أنه كان صاحب ثروة، وإنما كان ذلك خوفاً من أن يفقد المال، وتدفعه الحاجة في يوم من الأيام إلى مدّ يده إلى لئيم فيرده أسوأ رَدّ، فرأى في البخل والحرص على المال مخرجاً من ذلك، جاء في النفح[1]: (كان يقول إذا قرأتُ أشعار العشق

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٧).

أميل إليها، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني وغيرها إلا أشعار الكرم ما تؤثر فيّ)، ويذكر الأدفوي وغيره[1] أنه كان يفتخر بالبخل كما يفخر الناس بالكرم، وكان يلوم تلميذه الصفدي على بذل المال في شراء الكتب[2]، ويذكر أنه عندما يحتاج كتاباً فإنه يستعيره من خزائن الأوقاف، ولا يفرط بدرهم لشراء الكتاب، وخاطب الصفدي ناصحاً فقال[3]: (أوصيك، احفظ دراهمك، ودع يقال بخيل، ولا تحتاج إلى الأرذال).

ومن هذا النص يفهم: أن الفقر الذي قاسى منه الكثير هو الذي كان يوقفه مثل هذا الموقف، ويدعو الناس إلى الرضا والبخل، وقول الناس عنه بخيل خير عنده من الحاجة إليهم، وهم لا يلبون طلبه غالباً.

وهذا أمر لاعتبى عليه فيه ولا تثريب، ولا يلومه عليه أحد، ولكن مبالغة أبي حيان فيه هي التي تؤخذ عليه، بل هي التي دفعت الناس إلى هذه النظرة، والحديث عن هذه النزعة، وكأنما كان البخل أمراً متأصلاً في نفسه وقد خُلق معه، وجُبل عليه، فهو لا يفارقه أبداً مع أن الحقيقة قد تكون غير ذلك، لقد كان يحب الاعتدال في هذا الأمر، وهو إلى الحرص على المال أقرب، ويكره التبذير والإسراف، بل كان يتحدث عن المسرفين والمبذرين ويغمز منهم[4].

سوء ظنه بالناس:

يذكر المؤرخون عن أبي حيان أنه كان يسيء الظن بالناس، ويطعن فيهم، ويذم الصالحين منهم والأولياء، ويذكرون أن لسانه كان مسترسلاً في ذلك إلى آخر عمره، فقد قال العلائي[5]:

---

(١) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠) وطبقات المفسرين (٢٢٨٧).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٧٤) وشذرات الذهب (٦/ ٣٤٦).
(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٧٤).
(٤) انظر النهر (٤/ ٢٨٩).
(٥) ذيل التذكرة (٢٦).

(.. وكان لسانه مسترسلاً في الوقيعة في الناس جداً إلى آخر عمره، لا يتورع عن ذكر أحد سواء كان من أئمة الإسلام المتقدمين، أو المتأخرين، فالله يسامحه فإنه لم يقلع عن ذلك إلى آخر حياته، قال: وسمعت منه أشياء من ذلك بشعة). ويروون: أنه كان يستهزىء بالفضلاء من أهل القاهرة، وأنهم كانوا يصبرون على ذلك، ويتقبلونه منه؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى علمه، فهم يتظاهرون أمامه بالرضا والود حرصاً على الانتفاع بما عنده[1].

غير أني بعد أن قمت بدراسة للنصوص التي تروي هذه الأخبار عنه، وجدت رواتها يكادون يجمعون على ذلك، ووجدت مدافعاً وحيداً عنه وهو الصفدي، والصفدي لازمه فترة غير قصيرة، فإذا حدثنا في شأن من شؤون أبي حيان، فإنما يحدثنا حديث الخبير المنصف.

ولقد دأب الصفدي على نفي هذا الأمر عن شيخه أبي حيان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان يضرب على ذلك الأمثال، ويروي الروايات.

نعم لقد وجدت أبا حيان يطعن في الذين يدَّعون الولاية، وحدوث أشياء خارقة لهم، اختصوا بها، وهي فوق طاقة البشر، وقد عجز عنها غيرهم، يطعن في الذين يتظاهرون بالصلاح ويدّعونه، ويخدعون الناس بذلك، ولكن في الوقت ذاته قد يروي لك كرامات بعض الأولياء، ويحدثك عنهم، ويثني عليهم، ولا يستنكر مما هم فيه شيئاً.

وعلى ذلك فالحكم المطلق على أبي حيان بأن هذه الصفة ملازمة له ظلم له، ولا ننسى في حكمنا عليه أن أمر الصوفية قد استشرى في عصره وكثر المتصوفون، ودعاة الصلاح في مصر، وكانت هذه الظاهرة تلفت نظره، وكان يعلم أن في مظاهر الصلاح هذه تدليساً وتغطية على العامة، فكان ينبه على ذلك، ويقع في ذمهم، وأكثر ما تجد ذلك عند حديثه عن

---

(١) تتمة المختصر (٢/ ٤٨٢).

الصوفية، والمشايخ الذي يرتدون زياً مغايراً لما ألفه الناس، ليكون في ذلك تمييز لهم عن غيرهم من أبناء عصرهم بدون سبب يقتضي هذا التمييز.

ولا شك أن المصريين كانوا يعظِّمون أصحاب هذه النزعات، وأولياء الله منذ القديم، وكان ذلك يحزُّ في نفس أبي حيان، وكان حديثه عنهم في الوقت ذاته يؤلمهم أيضاً، ويأخذ في نفوسهم؛ ولذلك كثر الحديث عنه في هذا الأمر.

إنه ينكر على فقراء الوقت، وأهل الدعاوى الباطلة، ممن ليس من أهل الصلاح ما هم فيه من دعوى لا وجود لحقيقتها، أما إنكار كرامات الأولياء، والقدح فيهم دون التمييز بينهم فذلك أمر يجل مقام أبي حيان عنه.

وقد أورد له في ذلك ابن جماعة أبياتاً يقول فيها[1]:

ومن يك يَدّعي منهم صلاحاً ... فزنديق تغلغل في الضلال

وبعده:

ترى الجهال تتبعه وترضى ... مشاركة بأهل أو بمال

فينهب مالهم ويصيب منهم ... نساءهم بمقبوح الفعال

ويأخذ حاله زوراً فيرمي ... عمامته ويهرب في الرمال

* * *

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٢٢).

أهل بيته

زوجه:

هي زمردة بنت أَيْرق[1] «بفتح الهمزة وسكون التحتانية»، وكانت مُحَدِّثة، وقد أسمعها أبو حيان على الأبرقوهي[2] وغيره، وحدثت عنه، وسمع منها البرزالي[3] وغيره، وتوفيت سنة ست وثلاثين وسبعمئة، وكان أبو حيان يودُّها كثيراً، وفيها يقول:

وجدتُ بها برد النعيم وإن يكن فـؤادي منهـا فـي جحيـم ولأواء

ابنته نُضَار[4]:

نُضَار، بضم النون وتخفيف الضاد، وكانت تُكنى: أُمَّ العز، وهي شاعرة أديبة فاضلة، ولدت سنة (٧٠٢ هـ) وسمعت وحدّثت، وكان والدها يثني عليها كثيراً.

قال الصفدي: «قال لي والدها إنها خرّجت جزءاً لنفسها، وإنها تعرب جيداً، وأظنه قال لي: إنها تنظم الشعر»، ويبدو أن أخاها حيان لم يبلغ ما بلغته من الاطلاع.

---

(١) الدرر الكامنة (٢/٢٠٨)، وأعلام النساء (١/٤٤٨) وفيه: «زمرد بنت أيرقد ركه».

(٢) أحمد بن إسحاق بن محمد الأبرقوهي نزيل مصر. توفي سنة (٧٠١هـ). الدرر الكامنة (١/١٠٩).

(٣) القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الدمشقي توفي (٧٣٩ هـ) وكان من أكابر علماء عصره.

(٤) انظر نفح الطيب (٣/ ٣١٥)، وأعلام النساء (٣/ ١٥٥٧)، والدرر (٥/ ١٦٧).

توفيت رحمها الله سنة (٧٣٠ هـ).

وبعد وفاتها عمل أبو حيان كتاباً سمَّاه (النضار في المسلاة عن نضار) ذكر فيه حياته وتنقلاته وشيوخه من مبتدأ أمره حتى ذلك التاريخ، ولما ماتت سأل السلطان الناصر أن يأذن له أن يدفنها في بيته بالشرقية فأذن له[١].

ولده حيـان وحفيده محمد:

أما ولده حيان[٢] فقد ولد سنة (٧٠٢ هـ) وسمع من أبيه، ومن غيره، وحدّث. توفي سنة (٧٦٤ هـ).

وأما حفيد أبي حيان فهو ولد ولده، وكان يدعى محمداً[٣]، وقد ولد سنة (٧٣٤ هـ)، وسمع من جده ومن أبيه، وغيرهما، وكان حسن الشكل منور الشيبة بهي المنظر حسن المحاضرة أضر بأخرة، وسمع منه ابن حجر، وكذلك الإسنوي وغيرهما، وتوفي في ثالث رجب سنة (٨٠٦هـ).

❊ ❊ ❊

(١) انظر نفح الطيب (٣/ ٣١٥) والدرر الكامنة (٥/ ٧٤).
(٢) الدرر الكامنة (٢/ ١٧٠).
(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٧٦) وشذرات الذهب (٧/ ٦٠).

وصية أبي حيان

قد يكون من المناسب بعد أن تحدثنا عن صفاته وطباعه، وما يتعلق بشخصيته أن نذكر ما جاء في وصيته، فهي تلقي الضوء على الجوانب السابقة التي تعرضت فيها للحديث عنه، وقد تناول في وصيته الأمور الآتية[1]:

- ينبغي على العاقل أن يكون حذراً من الناس، يظهر لهم الصداقة، وفي الباطن يتصوَّر أنهم أعداء ينبغي التحرُّز منهم، وعليه أن يكون تحرُّزه من صديقه أكثر من تحرُّزه من عدوه.
- وأبو حيان في هذا يؤكد معنى عاماً توارد عليه الناس منذ القديم في شدة الحذر من الصديق، إذ لو انقلب الصديق عدواً في يوم من الأيام فإنه يكون أدرى بالمضرة.
- الناس لا يتوددون إليك إلا لنفع يرجونه منك، وخير يؤملونه فيك، فليس ما تلقاه من ود ظاهر لذاتك وشخصك وإنما لما يكون منك.
- على الإنسان أن يتجنب الكلام في ذات الله، وصفاته، وفيما جرى بين الصحابة، أو أئمة المذاهب، والطعن عل الصالحين من عباد الله، وأرباب المناصب والرتب.
- يجب على المؤمن ألا يقصد إيذاء أحد.
- الناس يتفاوتون في الفهم والإدراك، كل يفهم على قدر عقله، فعلينا أن

---

(١) انظر نص الوصية في نفح الطيب (٣/ ٣٢١).

نعذرهم فيما يصدر عنهم، ومما يكون فيه نقص أو خلط واضطراب في بعض الأحيان.

- الابتعاد عن الاستهزاء بالناس، والاستخفاف بأبناء الزمان.

- يجب على المرء أن يبحث فقط مع من كان ديِّناً فاهماً مزاولاً للبحث، وإلا فالبحث مضيعة للوقت.

- يجب على العالم أن يترفق بمن لا يفهم مراده، ولا يدرك ما يقصده.

- لا يصح أن نسرع بتخطئة الآخرين.

- علينا ألا نخوض في علوم الأوائل، وأن تكون دراستنا مقصورة على علوم الشريعة.

- يجب ألا ننكر على الفقراء حقوقهم، ويجب أن نسلم إليهم أموالهم.

- على المرء أن يكون متواضعاً، وأن يتذكر أنه ضعيف عاجز، وألا يعتزَّ بقوته مهما بلغت، فلا يتكبر على أحد من خلق الله.

- تقليل الضحك والمزاح؛ فإن ذلك يُذهب الهيبة.

- على المرء ألا يتدخل فيما لا يعنيه.

- أَظهِرْ للناس ما يوافقهم دون أن تقع في معصية الله ومخالفة أمره، وليكن ذلك مع حفظ المروءة.

- ابتعد عما يستقبحه الآخرون منك.

- لا تظهر الشكوى للناس.

- لا تذكر أهلك أمام جلسائك بشيء.

- يجب أن يبقى عمل الخير مستوراً.

- على المرء أن يحسن معاملة الناس، وأن يستعمل في ذلك اللفظ الحسن، وأن يغض الطرف على تصرفاتهم وأخطائهم.

- ألاّ يعتمد على أحد إلا الله.

ـ الإكثار من مطالعة التاريخ، لأن التاريخ بما فيه من حوادث وعبر وسير وذكر أمم خَلَت يُـلْقِح عقلاً جديداً.

هذه هي الأمور التي أوصى بها أبو حيان استخلصتها من وصيته مع تغيير في الصياغة، وبسط في التعبير، وفصل فيما بينها.

مع علي وآل البيت:

كان أبو حيان يحب علياً رضي الله عنه وآل البيت، ويثني عليهم، ويذكرهم بخير، شأنه في ذلك شأن جميع المسلمين.

وقد ذكر أبو حيان: أن أبا محمد بن حزم ذكر أن بغض علي من الكبائر، ونقل عن محمد ابن الحنفية أنه قال: «لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل بيته»[1].

وينسب المؤرخون هذا التعصب لأبي حيان، ويعللونه بأنه جرى في ذلك على مذهب كثير من النحويين، ولا أعتقد أن أبا حيان كان يقتفي أثر النحويين في ذلك، ورأيته في كتابه (البحر) لا يترك مناسبة للثناء على عليّ إلا يستغلها، ويدافع عنه، ويرى بغضه نوعاً من النفاق، دون أن يكون هذا تمييزاً له من باقي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٢١)، وانظر نفح الطيب (٣/ ٢٩٦)، والبدر الطالع (٢/ ٢٩١)، والدرر الكامنة (٥/ ٧٠).

مذهبه الفقهي

ذُكر عن أبي حيان: أنه تنقل بين مذاهب مختلفة وهي: المالكي، والظاهري، والشافعي أخيراً.

ومع هذا التغيير في المذهب لم يعرف عن أبي حيان أنه كان عنده تعصُّب مذهبي، فكان يختلط بالأحناف، والحنابلة، والشافعية جميعاً، وقد ثقف نفسه بهذه المذاهب على اختلافها، وأخذ عن علمائها.

وأما المذهب المالكي فلم يُعْرف به، ولم يشتهر ذلك عنه، وقد انفرد بالخبر عن هذا المذهب ابن تغري بردي حيث قال في نسب أبي حيان: «... المغربي المالكي ثم الشافعي»(١)، وهو خبر لم أجد مؤيداً له عند غيره من رواة أخباره.

وينقل عن أبي حيان أنه قرأ «الموطأ»، وهو كتاب الإمام مالك(٢) سنة ثلاث وسبعين على ابن الطبَّاع، وذلك في الأندلس قبل هجرته إلى الشرق.

وكان مذهب مالك منتشراً في ذلك الوقت في الأندلس والمغرب(٣)، ولم يزاحمه في هذين القطرين مذهب آخر.

بعد هذا نرى أنه من المعقول أن يكون أبو حيان قد درس المذهب

---

(١) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١١).

(٢) معرفة القراء الكبار (٢/ ٥٧٧) ونفح الطيب (٣/ ٣١٧).

(٣) مالك / أبو زهرة (٣٩٩) ومقدمة ابن خلدون (٤٤٩).

المالكي، واطلع على أصوله: غير أنه لم يتخذه مذهباً له، وكان يستشهد في البحر بآراء مالك في الأحكام كما يستشهد بأقوال الفقهاء الآخرين.

أما المذهب الظاهري، فقد عرف عن أبي حيان أنه كان يدين به قبل رحيله عن الأندلس، وعبارته مشهورة في هذا المذهب يقول فيها[1]: «محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه».

وكان يلتقي بعلماء الظاهرية[2]، وممن التقى به منهم: أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأشبيلي الزاهد، وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الشنتمري.

أما اتباعه المذهب الشافعي فقد كان بعد مجيئه إلى مصر، وكان المذهب الشافعي منتشراً في ذلك العهد[3]؛ إذ يذكر ابن خلدون أن مقلديه بمصر أكثر مما في سواها[4]، وقد ذكر العلامة المناوي أن أبا حيان كان من جملة من غَيَّر مذهبه فقال في ذلك[5]: «وقد انتقل جماعة من المذاهب الأربعة من مذهبه لغيره منهم: .... وأبو حيان الظاهري للشافعي ذكره الأسنوي وغيره».

ويذكر السيوطي[6] عنه: أنه تمذهب للشافعي، وكذلك ابن حجر، إذ يقول[7]: «وكان ظاهري المذهب، فلما قدم القاهرة ورأى مذهب الظاهر مهجوراً فيها تمذهب للشافعي، وقرأ على العَلَم العراقي في «المحرر»

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧٠)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠) وطبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).
(٣) الشافعي (٣٧٠).
(٤) مقدمة ابن خلدون (٤٤٨).
(٥) فيض القدير (١/ ٢١٢).
(٦) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٧) الدرر الكامنة (٥/ ٧٤ ـ ٧٥).

و«المنهاج»، ثم درس المنهاج، فحفظه إلاَّ يسيراً منه، قلت: ونسخه بخطه ورأيته، ثم اختصره».

وقيل: إن أبا حيان سئل عن هذه التحوُّل في المذهب فقال[1]: «بحسب البلدة». وعلى أي حال فقد أعجب أبو حيان بالإمام الشافعي إعجاباً كبيراً بعد أن اطلع على مذهبه، ولعلَّ من أسباب هذا الإعجاب الجانب اللغوي، إذ بلغ الشافعي رضي الله عنه قدراً في اللغة جعل الإمام أحمد يقول عنه إنه حجَّة في اللغة[2]، وكان أبو حيان على قدر عظيم من الاطلاع على اللغة مفرداتها وأساليب البيان، ولعل ما وجده أبو حيان عند الشافعي[3] لا يجده عند غيره من الأئمة، فلعلَّ هذا كان سبباً من أسباب هذا الإعجاب.

لقد درس مذهب الشافعي القديم ومذهبه الجديد، درس على الشيخ علم الدين[4] العراقي «المحرر» للرافعي وهو في فقه الشافعية، ودرس «مختصر المنهاج» للإمام النووي وهو في فقه الشافعية أيضاً، وذكرنا فيما سبق أنه حفظ المنهاج، واختصره بعد أن نسخه، فقد ذكر أن من مؤلفاته «الوهاج في اختصار المنهاج»[5].

وكان ينقل شعر الشافعي يؤيّد به المعنى، فقد قال قتادة[6]: «تلقى ضعيف القوة قليل الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان وهو معتز عليه، انتهى، وقال الشافعي رحمه الله:

---

(١) بدائع الزهور (١/ ٢٠٠) «عن الحديثي».

(٢) الاقتراح (٢٠).

(٣) أقام الشافعي رحمه الله عشر سنوات في هذيل يتعلم الفصحى حتى إن الأصمعي كان يصحح عليه أشعار هذيل. الشافعي (١٨).

(٤) نفح الطيب (٣/ ٢٩٦)، والدرر الكامنة (٥/ ٧٥)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

(٥) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).

(٦) البحر (٨/ ١٣)، وانظر البحر (١/ ٧٢)، وانظر أيضاً (١/ ٢١٣).

ومن الدليل على القضاء وكونه   بؤس الفقير وطيب عيش الأحمق»

وهو يذكر آراء الشافعي في الأحكام، ويأخذ بها في كثير من الأحيان[1]، ولنا عودة إلى هذا الجانب، فسوف نوفيه حقَّه عند الحديث عن الجانب الفقهي في الكتاب.

* * *

---

(١) البحر (١/ ٤٥٠) ومواضع أخرى كثيرة. وانظر البيت في ديوان الشافعي (ص٦٥).

ثقافته

لقد كان أبو حيان ـ رحمه الله ـ تلميذاً نشيطاً مجداً، أقبل على الطلب بهمَّة ونشاط ورغبة، فدرس على علماء كثيرين، واجتهد في التحصيل والتقييد والكتابة، ولم يكن لديه وقت لغير ذلك، يذكر تلميذه الصفدي: أنه لم يره مرة قط إلا وهو يسمع، أو يشتغل، أو يكتب(١).

لقد تبحر أبو حيان في علوم مختلفة، وفاق الأقران في جميع الأقطار، ولم يكن في عصره من يماثله في سعة الاطلاع والمعرفة في مجالات علمية متنوعة(٢).

وإنه بسبب هذه الثقافة الواسعة التي عرف بها بين الناس في الأقطار الإسلامية، نجد المؤرخين من طلابه وغيرهم ممن ترجم لعلماء تلك الفترة، يصفونه بأوصاف مختلفة، تدل كلها على قدره، ومكانته عند الناس، وطول باعه في هذه العلوم، والقدر العظيم الذي حصَّله أيام الجد والطلب، فهو عند المتقدمين(٣) ترجمان العرب، ولسان أهل الأدب، وهو حجَّة العرب، وهو لسانهم، وهو شيخ الدهر، وشيخ النحاة، وسيبويه الزمان، وأمير المؤمنين في النحو.

ولو استعرضنا سيرة من سبقه من النحويين منذ عصر سيبويه إلى القرآن

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٤).

(٢) البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).

(٣) انظر ذيل التذكرة: (٢٣)، ونفح الطيب (٣/ ٢٨٩، ٢٩١)، وطبقات الشافعية (٦/ ٣١) والدرر الكامنة (٥/ ٧٣).

السابع الهجري، فإننا لا نجد واحداً من أعيان هذا العلم كتبت له هذه الصفات، وليس في واحد منها مبالغة أو ثناء مفرط، فقد كان كما وُصف وفوق ذلك، إذ إنك لن تجد في السابقين نحوياً كانت ثقافته متشعبة متنوعة في فروع مختلفة من المعرفة بين الفقه، والحديث، والتفسير، واللغة، والنحو، والأصول كأبي حيان.

إن معظم العلماء السابقين إنما جاءتهم شهرتهم من باب واحد من أبواب العربية، أما أبو حيان فقد كان غير ذلك، لقد بلغ قدراً وصف بسببه بأنه مفخرة أهل مصر في العلم في عصره[1].

يتحدث عنه السيوطي فيقول: «نحوي عصره، ولغويه، ومفسره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه، وأديبه.. وأكب على طلب العلم وبرع فيه، وفي التفسير، والعربية، والقراءات، والأدب، والتاريخ، واشتهر اسمه»[2].

وأما تلميذه الصفدي فيذكر[3]: أن له اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع، وتراجم الناس، وطبقاتهم وحوادثهم وخصوصاً المغاربة.

ويذهب بلانثيا[4] إلى أنه لقب بشيخ النحاة لعلمه الغزير في هذا الباب، وقد كان إلى جانب ذلك واسع المعرفة، بفروع أخرى من العلوم الإسلامية كالتفسير، والحديث، والشروط، والفروع، وتراجم الناس وطبقاتهم، وأتقن الفارسية، والتركية، والحبشية، وكان له نشاط ملحوظ في القاهرة.

---

(١) معرفة القراء الكبار (٢/ ٥٧٧).
(٢) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٩٤).
(٤) تاريخ الفكر الأندلسي (١٨٧).

ويبرز أحمد أمين[1] الجانب اللغوي، ويرى أن أهميته في تاريخنا الفكري تأتي من حيث اطلاعه على لغات مختلفة، وتأليفه فيها، وأزيد على ذلك فأذكر أنه لم يسبقه إلى ذلك نحوي أو لغوي في تاريخنا من قبل.

ويذكر ابن حجر[2] أنه شيخ الدهر، وعالم محيي الفن والأدب بعد ما درست معالمه، ومجري اللسان العربي فلا يقاربه فيه أحد ولا يقاومه.

ولو أردت أن أستمر على هذا المنوال في نقل ثناء المتقدمين وأقوالهم وأوصافهم لملأت في ذلك صفحات كثيرة، وكلها لعلماء في شرق البلاد الإسلامية وغربها من القدماء والمحدثين، فقد كان شهرته قد عمَّت البلاد الإسلامية على طولها وعرضها في ذلك الزمان.

وإذا كانت هذه الأوصاف المختلفة التي جمعتها من أقوال الذين أرَّخوا لأبي حيان إجماعاً على غزارة علمه وسعة أفقه، ورسوخ قدمه في هذه العلوم المتعددة فكيف حَصّل ذلك أبو حيان؟ وكيف درس هذه العلوم؟ وما أسلوبه في التحصيل؟ لا أريد الحديث عن ذلك أنا، وإنما أتركه ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ يحدثنا هو عن أيام الشباب التي قضاها في التعب والسهر والجد، يقول أبو حيان[3]: «وما زلت من لدن ميزت أتلمذ للعلماء ، وأنحاز للفقهاء، وأرغب في مجالسهم، وأنافس في نفائسهم، وأسلك طريقهم، وأتبع فريقهم، فلا أنتقل إلا من إمام إلى إمام، ولا أتوقل[4] إلا ذروة علام.

فكم صَدْر أودعت علمه صدري، وحِبْر أفنيت في فوائده حبري، وإمام أكثرت به الإلمام، وعلاّم أطلت معه الاستعلام، أشنف المسامع بما تحسد

---

(١) ظهر الإسلام (٣/ ٩٤).

(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٧٣).

(٣) البحر المحيط (١/ ٣ ـ ٤).

(٤) وقل في الجبل يقل صعد كتوقل / القاموس.

عليه العيون لغلها، وأذلّ[1] في تطلاب ذلك المال المصون، وأرتع في رياضٍ وارفة الظلال، وأكرع في حياضٍ صافية السلسال، وأقتبس بها من أنوارهم، وأقتطف من أزهارهم، وأبتلج من صفحاتهم، وأتأرَّج من نفحاتهم، وألقط من نثارهم، وأضبط من فضالة إيثارهم، وأقيّد من شواردهم، وأنتقي من فرائدهم».

وبعد هذا النص يذكر لنا أبو حيان أنه عانى في سبيل هذا العلم الذي يسعى وراءه الشيء الكثير، لقد شقي وتعب وسهر الليالي الطويلة، بينما كان غيره يلهو ولا همّ إلا المطعم الشهي والمشرب الروي.

قال أبو حيان: «فجعلت العلم بالنهار سحيري، وبالليل سميري، زمان غيري يقصر ساريه على الصِّبا، ويهب للهو ولا كهبوب الصَّبا، ويرفل في مطارف اللهو، ويتقمص أردية الزهو، ويؤثر مسرات الأشباح على لذات الأرواح، ويقطع نفائس الأوقات في خسائس الشهوات، من مطعم شهيٍّ ومشرب رويٍّ، وملبس بهيٍّ، ومركب حظيٍّ، ومفرش وطيٍّ، ومنصب سنيٍّ، وأنا أتوسَّد أبواب العلماء وأتقصَّد أماثل الفهماء، وأسهر في حنادس الظلام، وأصبر على شظف الأيام، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد، وأرتحل من بلد إلى بلد حتى ألقيت بمصر عصا التسيار...»[2].

هذا عمل أبي حيَّان وهذا جهده، وهو يكتب هذه المقدمة في البحر بعد أن بلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، ما عرف الراحة فيها أبداً، ولا ذاق لذة العيش ولا طيب الحياة.

وإذا أردت أن تعرف إلى أيِّ حدٍ وصلت إليه ثقافته وعمق اطلاعه، والفنون التي درسها، والتي سهر الليالي الطوال مكباً عليها، يرجع البصر فيها فما عليك إلا أن تقرأ مقدمة البحر، ثم تغوص بعدها فيه، فإنك تجد عجباً وشيئاً غريباً.

---

(١) ذال الشيء: أهان، وأذلته: وأهنته / القاموس.
(٢) البحر المحيط (١/ ٤).

وتتجلى ثقافة أبي حيان في البحر أكثر من أي كتاب آخر من مؤلفاته الكثيرة التي خلفها لنا؛ ففيه العلوم التي عدّها في مقدمته، وفيه حديث عن الطب، والأرض، والطباع، والمؤرخين، والعادات الاجتماعية والتقاليد، وفيه ذكر للكتب السماوية، وسيأتي حديث مُفَصّل عن هذا الكتاب.

* * *

شيوخ أبي حيان

ذكر أبو حيان نفسه أسماء معظم شيوخه الذين أخذ عنهم في إجازته التي أجاز بها للصفدي أن يروي عنه[1] . وهناك شيوخ لم يرد لهم ذكر في هذه الإجازة، ولكنهم ذكروا في مراجع أخرى، وهؤلاء الشيوخ هم:

١ ـ أبو جعفر بن الزبير: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الجيّاني الغرناطي، مُحَدِّث جليل، ونحويّ فصيح مُفوَّه، ومقرىء ومُفَسِّر ومؤرِّخ، ولد سنة ٦٢٧ هـ، وتوفّي سنة ٧٠٨ هـ، وله عدد من المؤلفات، منها تعليق على كتاب سيبويه.

٢ ـ ابن الطباع: هو أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن عياش أبو جعفر بن الطباع الرعيني الغرناطي الأندلسي، إمام حاذق مشهور، عالم بالقراءات، مولده سنة ٦٠٧ هـ، ووفاته سنة ٦٨٠ هـ.

٣ ـ ابن الأحوص القرشي: هو الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الإمام أبو علي بن أبي الأحوص القرشي الفهري الغرناطي المولد البلنسي الأصل، الجياني المولد، كان من فقهاء المحدثين، وكان معروفاً بالقراءات، حافظاً للتفسير والحديث ذاكراً للأدب واللغات والتواريخ، وقد ألف بالقراءات، مولده سنة ٦٠٣ هـ، ووفاته بغرناطة سنة ٦٧٩ هـ.

٤ ـ أبو الحسن الأبّذي النحوي: وهو علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم الخشني الأبّذي، وأبذة بلد من بلاد الأندلس، كان نحوياً

---

(١) انظر نفح الطيب (٣/ ٣٠٢) وما بعدها.

بارعاً، وعنده معرفة جيدة بالخلاف في النحو، وكان على اطلاع جيد بكتاب سيبويه ومن الواقفين على مسائله الغامضة، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

٥ ـ الشاطبي: وهو محمد بن علي بن يوسف رضي الدين أبو عبد الله الأنصاري الشاطبي اللغوي ولد ببلنسية سنة ٦٠١ هـ، وكان عالي الإسناد في القرآن، وإمام عصره في اللغة، وله حواشٍ على الصحاح، مات بالقاهرة يوم الجمعة سنة ٦٨٤هـ.

٦ ـ محمد بن مصطفى بن زكريا بن خواجا حسن، فخر الدين التركي الصُلَغري، كان عالماً بالعربية، ويعرف التركية والفارسية، وله نظم في الفقه والنحو، ومنه تعلم أبو حيان اللغتين التركية والفارسية. ولد سنة ٦٣١ هـ، وتوفي سنة ٧١٣هـ.

٧ ـ ابن النحاس: وهو محمد بن إبراهيم بن أبي نصر، الإمام أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس الجلي النحوي شيخ الديار المصرية في علم اللسان، درس القراءات، والحديث، وله خبرة بالمنطق، وكان كثير القراءة في كتب الأدب، وصحاح الجوهري، وكان ثقة حجة صالحاً، ولد سنة ٦٢٧ هـ، وتوفي سنة ٦٩٨ هـ.

٨ ـ ناصر الدين الحسن بن شاور بن طرقان بن الحسن الكتامي المعروف بابن النفيسي، جالسه أبو حيان مراراً في القاهرة، وكتب عنه، وذكر أن نظمه كان حسناً، توفي سنة ٦٨٧ هـ.

٩ ـ إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري، مولده بجعبر سنة ٥٩٩ هـ، رجل صالح مشهور، تفقه على المذهب الشافعي، وسمع الحديث بالشام من السخاوي، وقدم القاهرة، وحدث بها، فسمع منه أبو حيان وغيره.

١٠ ـ محمد بن يوسف بن حبيش أبو بكر الأديب العالم البارع النحوي، من شيوخ أبي حيان بتونس، وكان لا يزال حياً في سنة ٦٧٩ هـ.

١١ ـ أبو بكر بن عمر بن علي بن سالم الإمام رضي الدين القسنطي النحوي

الشافعي، ولد سنة ٦٠٧ هـ، ونشأ بالقدس، وأخذ العربية عن ابن معط، وابن الحاجب، وكان من كبار أئمة العربية بالقاهرة.

١٢ ـ ابن النقيب: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، وقد عرف بابن النقيب، وكان مفسراً، ومن مؤلفاته: «التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير»، وقد نقل منه كثيراً أبو حيان في كتابه: البحر المحيط.

هؤلاء بعض شيوخ أبي حيَّان أكتفي بالحديث عنهم، معطياً بذلك فكرة عن المستوى العلمي الذي بلغه شيوخه، ومكانتهم في عصره، فإن أردت بياناً مفصلاً أوفى مما ذكرت عن هؤلاء وغيرهم من شيوخه؛ فارجع إلى كتابي «البحر المحيط لأبي حيَّان ـ دراسة نحوية صرفية صوتية».

* * *

تلاميذه

إن رجلاً بلغ من العلم القدر الذي بلغه أبو حيان لا بد أن يصبح محط أنظار طلاب العلم، وأن يسعوا للأخذ منه، وخاصة بعد أن تولى تدريس التفسير في المدرسة المنصورية.

وكنا عرفنا من قبل أن الفترة التي عاشها أبو حيان في القاهرة كانت فترة فيها نشاط علمي واسع، وكان فيها علماء كثيرون من بلاد مختلفة، وكل واحد منهم كان عالماً في مجاله واختصاصه، وكان من نتيجة وجود هذا العدد الكبير من العلماء والمدارس التي نشط الحكام في بنائها، وتوفير المدرسين لها، والحلقات العلمية التي تعقد في المدارس والمساجد، وكان من نتيجة ذلك إقبال الناس على التعلم، إذ وجدوا أسبابه ميسرة، وسبله مفتوحة أمامهم، فأقبل الناس على أبي حيان؛ لأنهم رأوه يتقن علوماً مختلفة، وهو واسع الثقافة، فمن يجلس إليه لا يسمع حديثاً في النحو فقط، وإنما يسمع النحو، والتفسير، والبلاغة، والفقه، والأصول، والحديث، والأدب، وكلما حدَّث أبو حيَّان في فنّ من هذه الفنون أيقن السامعون أنه لم يترك لأحد فيه مطلباً، أو غاية يبتغيها، وأنه قطع فيه قول كل خطيب، فلا يجاريه في ذلك منافس، بل لا يطمع في ذلك طامع.

يقول تلميذه تاج الدين السبكي: «إمام النحو الذي لقاصده منه ما يشاء، ولسان العرب الذي بكل سمع لديه الإصغاء، كعبة علم تُحجُّ ولا تَحج، ويقصد من كل فج، تضرب إليه الإبل آباطها»(١).

---

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٣٢).

ولقد تحدث بذلك الناس، وسارت بأخباره الركبان، فوصلت إلى المغرب، والأندلس، والشام غرباً وشرقاً، فكان هَمُّ من يأتي من الغرب متجهاً إلى الشرق، ومن يغادر الشرق نحو الغرب أن يجالس أبا حيَّان، مجادلاً أو مستمعاً، لاعتقاده أنه سوف يسمع جديداً لم يُقَدَّر له أن يحظى بمثله من قبل، وقد كان الأمر كذلك.

وكان مما زاد إقبال الناس عليه: التشجيع الذي كانوا يلقونه منه، واهتمامه بهم، وحرصه على نفعهم، وإصغاؤه إليهم، فذلك ما كان يذكي الرغبة في نفوسهم ويشجعهم، وينشطهم للعلم، ولذلك فقد ازداد عدد تلاميذه، وكانوا من بلاد شتى.

وأمضى أبو حيان المدة التي أقامها في القاهرة متعلماً ومعلماً، يقرأ ويؤلف ويدرِّس، فاستفاد كثيراً، وأفاد خلقاً كثيراً، وأخذ عنه طلاب العلم والعلماء، يقول الداودي: «واشتهر اسمه، وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، وتقدّموا في حياته»[1].

وأولئك الذين درسوا على يديه تقدّموا في حياته بما حصلوه من علم وبما انتفعوا به منه، ومن غيره، وأصبحوا أئمة مشهورين، وأعلاماً معروفين، وأشياخاً لهم دروسهم وتلاميذهم.

من تلاميذ أبي حيان

١ ـ **السبكي**: هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، فقيه شافعي ومفسر وأصولي ونحوي ولغوي ومقرىء.

ولد بسبك من أعمال الشرقية سنة ٦٨٣ هـ، وقدم القاهرة فأخذ عن علمائها ومنهم أبو حيان، وصار من علماء العصر البارزين، توفي سنة ٧٥٦ هـ.

---

(١) طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦).

٢ ـ **بهاء الدين السبكي**: هو أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، سمع على عدد كبير من علماء العصر، وكانت له مكانة عند شيخه أبي حيان، وتولى التدريس في المدرسة المنصورية، وولي قضاء العسكر، ثم خطابة الجامع الطولوني، ولد في سنة ٧١٩ هـ، وتوفي بمكة سنة ٧٧٣هـ.

٣ ـ **جمال الدين السبكي**: وهو الحسين بن علي بن عبد الكافي، ولد في رجب سنة ٧٢٢، وقرأ على جماعة من مشايخ العصر، ولما ورد مصر أخذ عن علمائها، وقرأ النحو على أبي حيان، ومن ذلك كتاب «التسهيل»، وتوفي سنة ٧٥٥ هـ في دمشق.

٤ ـ **السمين الحلبي**: وهو أحمد بن يوسف بن محمد بن عبد الدائم الحلبي، المقرىء النحوي الشافعي، نزيل القاهرة، قرأ النحو على أبي حيان، والقراءات على ابن الصائغ، وله تصانيف كثيرة منها كتابه في التفسير وإعراب القرآن «الدر المصون»، وقد ألفه في حياة شيخه أبي حيان، وكان فقيهاً بارعاً، وله علم بالقراءات، والأصول توفي سنة ٧٥٦ هـ.

٥ ـ **السفاقسي**: هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي المالكي، برهان الدين أبو إسحاق السفاقسي النحوي، ولد سنة ٦٩٧ هـ، وأخذ عن علماء عصره، وعن أبي حيان بالقاهرة، وله كتاب سماه «المجيد في إعراب القرآن المجيد» توفي سنة ٧٤٢ هـ.

٦ ـ **ناظر الجيش**: هو محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم الحلبي، محب الدين، ناظر الجيش ولد سنة ٦٩٧ هـ، وجاء إلى القاهرة، ولازم فيها أبا حيان، ومَهَر في العربية وغيرها، وقد اعتنى بالأجوبة الجيدة عن اعتراضات أبي حيان في «شرح التسهيل»، مات في سنة ٧٧٨ هـ.

٧ ـ **ابن أم مكتوم**: هو أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم، ولد سنة ٦٨٢ هـ، وأخذ النحو عن ابن النحاس، ولازم أبا حيان دهراً طويلاً، ودرس الفقه، وسمع الحديث، وكان متقدماً في اللغة والنحو، وله تصانيف منها: شرح كافية ابن الحاجب، شرح الشافية، الدر اللقيط من البحر المحيط، وقد قصره على مباحث أبي حيان مع ابن عطية والزمخشري، مات سنة ٧٤٩ هـ بطاعون عَمّ في مصر.

٨ ـ **ابن عقيل**: هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل القرشي الهاشمي العقيلي الهمداني الأصل، المصري، قاضي القضاة، وهو نحوي الديار المصرية، ولد سنة ٦٩٨ هـ ودرس القراءات، والفقه، والمعاني، والتفسير، والعروض، ولازم أبا حيان، وله تصانيف منها: المساعد على شرح التسهيل، وشرح الألفية، توفي في القاهرة سنة ٧٦٩ هـ.

٩ ـ **الإسنوي**: هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن إبراهيم الأموي، الشيخ جمال الدين أبو محمد الإسنوي، الفقيه الشافعي الأصولي النحوي العروضي.

ولد في العشر الأخير من ذي الحجة سنة أربع وسبعمئة، وقدم القاهرة سنة إحدى وعشرين، وأخذ العربية عن أبي الحسن النحوي والد ابن الملقِّن، وأبي حيَّان، وسمع الحديث من الدبُوسي وغيره.

١٠ ـ **ابن هشام**: هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري، الشيخ جمال الدين الحنبلي.

كان نحوياً فاضلاً علامة مشهوراً، ولد في ذي العقدة سنة ثمان وسبعمئة، ولزم الشهاب عبد اللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السراج، وسمع على أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى ولم يلازمه طويلاً، ولا قرأ عليه النحو، وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفاكهاني، وتفقه للشافعي، ثم تحنبل وأتقن العربية، ففاق الأقران، بل الشيوخ،

وحدَّث عن ابن جماعة بالشاطبية، وتخرَّج به جماعة من أهل مصر وغيرهم.

وتصدر لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، وكانت مباحثه دقيقة، وله استدراكات عجيبة، وكان محققاً بارعاً، قادراً على التصرُّف في الكلام، وكانت لديه ملكة تمكنه من التعبير عن مقصوده بما يزيده إسهاباً وإيجازاً.

عرف عنه أنه كان براً متواضعاً شفوقاً، دمث الخلق، رقيق القلب، وعبارة ابن خلدون فيه معروفة: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه».

ولم تكن الحال على خيرٍ بينه وبين شيخه أبي حيان، فإنه لم يدرس النحو عليه، مع شهرة أبي حيان، وكان شديد المخالفة له، ويبدو ذلك من المسائل التي رد بها على أبي حيان في كتابه «مغني اللبيب»، وكذلك شرحه لكتاب «اللمحة»، ومسألة «كذا»، وكان يُعَرِّض بأبي حيان، ويقول: الاسم في زمانه لأبي حيان والانتفاع بابن المرحل.

توفي ابن هشام ليلة الجمعة خامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمئة، وله مؤلفات كثيرة مشهورة منها: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وشرح شذور الذهب وقطر الندى، وشرح اللمحة، وغيرها.

١١ ـ **المرادي**: هو الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي، والمصري المولد، الآسفي المغربي المحتد، النحوي اللغوي، الفقيه البارع بدر الدين المعروف بابن أم قاسم، وهي جدته أم أبيه، واسمها زهراء، وكانت أول ما جاءت به من المغرب تعرف باسم «الشيخة»، وكانت شهرته تابعة لشهرتها.

أخذ العربية عن أبي عبد الله الطنجي، والسراج الدمنهوري، وأبي زكريا الغماري، وأبي حيان، وأخذ الفقه عن الشرف المقيلي

المالكي، والأصول عن الشيخ شمس الدين بن اللبان، وأتقن العربية والقراءات على المجد إسماعيل التستري، وصنف وتفنن وأجاد.

هؤلاء بعض تلاميذ أبي حيان ـ وهم كثير ـ وارجع إلى كتابي (البحر المحيط لأبي حيان ـ دراسة نحوية صرفية صوتية) ففيه بيان أوفى مما ذكرته هنا.

* * *

مكانته في عصره وصلته بمن حوله

كان لأبي حيان مكانة عظيمة في قلوب الناس، صغاراً وكباراً، حكاماً ومحكومين، وكانت الصلة وثيقة بينه وبين قضاة العصر وعلمائه.

لقد كان موضع إجلال وإكبار واحترام من هؤلاء جميعاً، وحسبه أنه كان شيخ الديار المصرية في ذلك الزمان.

لقد كانت له خصوصية بالأمير سيف الدين أرغون كافل المماليك، ينبسط معه، ويبيت عنده في قلعة الجبل[١].

ومدحه كثير من الشعراء والفضلاء في عصره[٢]، وكانت المدائح تأتيه من الشام؛ إذ أصبح معروفاً في بقاع العالم الإسلامي على طولها وعرضها، فقد مدحه نجم الدين إسحاق بن المني التركي، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة أرسلها إليه من دمشق أولها[٣]:

تَبَدَّى فخلنا وجهه فلق الصبح   وكَمَّلَهُ باليمن فيه وبالنجح
وسَهَّلْتَ تسهيل الفوائد محسناً   فكن شارحاً صدري بتكملة الشرح

وكانت بينه وبين قضاة العصر في مصر صلات قوية أمثال شمس الدين السروجي، وابن دقيق العيد، وتقي الدين السبكي قاضي القضاة في الشام، وأولاده وبدر الدين محمد بن جماعة، وقد مضى ذكر ذلك.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٥)، والدرر الكامنة (٥/ ٧٤).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٧٣)، ونفح الطيب (٣/ ٢٩٨).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

وكان في عصر أبي حيان ابن تميمة، وهو أحمد بن عبد الحليم، ولما قدم ابن تميمة إلى القاهرة جاء أبو حيان إليه والمجلس غاص، فقال يمدحه مرتجلاً[١]:

لما أتينا تقي الدين لاح لنا — داعٍ إلى الله فَرْد ما له وزر
على محياه من سيما الأُلى صحبوا — خيْرَ البرية نور دونه القمر

ومع هذا الاستقبال، وهذا التكريم، وهذا الثناء الذي ليس بقليل من رجل كأبي حيان، فإنه لا تمضي فترة حتى يقع النفور والخلاف بينهما، وذكروا لذلك عدة أسباب[٢].

* * *

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٣٥).
(٢) انظر: نفح الطيب (٣/ ٣٣٥)، وشذرات الذهب (٦/ ١٤٥)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٢).

شعر أبي حيان

ذكر المؤرخون لأبي حيان شعراً كثيراً، وكان ذلك في أثناء الحديث عن حياته، والترجمة له، وجاء هذا الشعر في موضوعات مختلفة كالغَزَل، والمديح، والتهاني، والرثاء وغير ذلك.

ولا عجب أن يكون أبو حيان قادراً على النظم، فقد تهيأت له أسبابه وبواعثه، وحافظة قوية استوعبت عدداً من الدواوين، كان قد استظهرها، وهو لا يزال في مقتبل العمر، واطلاع واسع على اللغة وأساليبها، وإحساس أدبي مرهف يدرك مواطن الجمال، ثم قدرة على وصف ذلك أحسن وصف.

ومع ذلك فإن أبا حيان لم يكن النظم صنعته، ولكنه كان في كثير من الأحيان ينظم في مناسبة طارئة تعرض له، أو عندما يضيق ذرعاً بالحياة وأهلها، فينظم الشعر ويبث فيه شكواه من الزمان وأحداثه، ويخفف بذلك من آلامه.

ولا ننسى مع هذا أن أبا حيان نحوي عريق، فلا بد من أن تظهر آثار صنعته في شعره مهما حاول تخليص هذا الشعر من آثار النحو وصبغته ومفرداته، على أنه لم يكن يحاول ذلك، بل كان يترك قريحته على سجيتها تجود بما فيها من الشعر الذي يمثل أحاسيسه ونزعاته وآراءه.

على أن المتقدمين نقلوا شعره وكان لهم رأي فيه، فقد جاء في النفح:

«وشعره كثير يتصف بالإجادة وضدها»[١] ومعنى ذلك: أنك تجد له شعراً يعلو، وتحس منه حلاوة الشعر البليغ ومذاقه، وآخر يهبط، فترى فيه كلاماً مصنوعاً لا بلاغة فيه، ولا ألفة بين ألفاظه، ولا رابط غير الوزن الذي نسق هذه الألفاظ على صورة بحر من البحور.

أما ابن تغري بردي فقد نظر في شعره، ثم رأى بعد ذلك أن أبا حيان عالم لا شاعر، فقد ساق موشحة لأبي حيان ثم علق عليها بقوله:
«قلت: ومذهبي في أبي حيان أنه عالم لا شاعر، ولم أذكر هذه الموشحة هنا لحسنها، بل قصدت التعريف بنظمه بذكر هذه الموشحة لأنه أفحل شعراء المغاربة في هذا الشأن»[٢].

والغريب في النص: أنه ينفي عن أبي حيان البراعة في النظم، ثم يقول: إنه أفحل شعراء المغاربة في نظم الموشحات، فلعله أراد بهذا شمس الدين بن محمد التلمساني، ولم يعن أبا حيان.

أما الإسنوي[٣] فقد ذكر أن أبا حيان كان شاعراً مجيداً صادق اللهجة.

ولا بد من الإشارة إلى أمور تعين على الحكم الدقيق على شعر أبي حيان، وهي:

١ ـ لم يكن أبو حيان يتعمد نظم الشعر، ويعمل فيه فكره، ويحككه على سنة الشعراء السابقين، بل كان غالب شعره يأتي عرضاً على أنه إحساس أدبي، وفيض شعري يحس به فيسجل ذلك الإحساس من فوره، والذي يدلك على ذلك أن كثيراً مما نقل عنه إنما هو مقطعات، وليس قصائد طويلة، وقد يتغير رأينا هذا عند ظهور الديوان إذا وجدنا أن ما جمعه الصفدي يناقض هذا الرأي، ويبطله، وذلك بعرض عدد كبير من القصائد الطويلة التي تدل على النَّفس الشعري الطويل عنده.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٣٨).
(٢) النجوم الزاهرة (١٠/ ١١٤).
(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٧٦).

٢ ـ كان يرتجل معظم شعره ارتجالاً، وارتجال الشعر لا يمكّن صاحبه من إحكام صنعته، ومعظم شعره كان مطارحات، أو ما هو من هذا الباب.

٣ ـ صرف أبو حيان همه ووقته لغير الشعر، ولم تكن عنايته به عناية الشعراء، ولذلك لا يمكن أن نقارن شعره بشعر فحول الشعراء.

ونحن مع هذا كله نجد عند أبي حيان صوراً بديعة، وأبياتاً رائعة جيدة.

ومن خلال ما وصل إلينا من شعره، نستطيع تصنيف موضوعاته الشعرية على النحو الآتي:

ـ بُعْده عن الناس	ـ أعداؤه وأثرهم على دراسته
ـ الدراسة على الشيخ	ـ الحديث عن الدراهم
ـ التاريخ	ـ الألغاز
ـ المطارحات الشعرية	ـ الزواج ومتاعبه
ـ إشارة إلى شعره في الزمخشري والصوفية	ـ المديح
ـ الغزل	ـ التهاني
ـ المعارضة	ـ الزهد والاتجاه إلى كتاب الله تعالى
ـ الرثاء	ـ الموشحات

ومما جاء في هذه الموضوعات قوله[١] في البُعْد عن الناس:

لقد زادني بالناس علماً تجاربي　　ومن جرَّب الأيام مثلي تعلَّما
وإني وتطلابي من الناس راحة　　لكالمبتغي وسط الجحيم تنعُّما
سأزهد حتى لا أرى لي صاحباً　　وأُنجِد حتى لا ألاقي مُتْهِما

وقال في أعدائه، وأثرهم في دراسته:

عداتي لهم فضل علي ومِنّة　　فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها　　وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

---

(١) انظر شعره في الجزء الثالث من نفح الطيب.

وقال في الدراسة على الشيخ:

يظـن الغمـر أن الكتـب تهـدي ... أخـا ذهـنٍ لإدراك العلـوم
ومـا يـدري الجهـول بـأن فيهـا ... غـوامـض حيـرت عقـل الفهيـم
إذا رُمْـتَ العلـوم بغيـر شيـخ ... ضللـت عـن الصـراط المستقيـم
وتلتبـس الأمـور عليـك حتـى ... تصير أضل من توما الحكيم[1]

ومما قاله في الدراهم والحرص عليها:

أتـى بشفيـع ليـس يمكـن ردّه ... دراهـم بيـض للجـروح مـراهـم
تصيّر صعب الأمر أهون ما يرى ... وتقضي لبانات الفتى وهو نائم

وقال في الزواج ومتاعبه:

خلـق الإنسـان فـي كبـد ... بـوجـود الأهـل والـولـد
كـل عضـو فيـه نـافعـه ... غيـر عضـو ضـرّ لـلأبـد
منتـج ذلاً وفقـد غنـى ... وفـراخـاً جمـة العـدد
مـن يمـت منهـم يـذقـه أسـى ... أو يعـش ألقـاه فـي نكـد
عـاش فـي أمـن فتـى عَـزَب ... مستـريـح الفكـر والجسـد

ومن مطارحاته ما أنشده في أعمى مخاطباً الصفدي:

ما ضرّ حسن الذي أهواه أن سنا ... كـريمتيـه بـلا شيـن قـد احتجبـا
قد كانتا زهرتي روض وقد ذوتا ... لكـن حسنهمـا الفتـان مـا ذهبـا
كالسيف قد زال عنه صقله فغدا ... أنكى وآلَم في قلب الذي ضربا

وأنشده الصفدي في المعنى نفسه فقال:

ورُبّ أعمـى وجهـه روضـة ... تَنَـزُّهـي فيهـا كثيـر الـديـون
وخـده ورد غنينـا بـه ... عـن نـرجس مـا فتحته العيـون

المديـح:

لم يكن المديح عند أبي حيان وسيلة للتكسب، كما أنه لم يكن يتقرب

---

(١) توما الحكيم طبيب، وقيل غير ذلك، ولعل أبا حيان عنى غيره.

به إلى الناس أو يتملق لهم، وإنما كان يمدح الآخرين بدافع الإعجاب بهم، ولإيمانه بأنهم أهل لمدحه، وقد مدح الإمام الشافعي والبخاري وهما مع الأموات.

أما مدحه للإمام الشافعي فكان مبعثه إعجابه بفقهه، إذ لم يتح له الاطلاع على مذهبه إلا بعد قدومه إلى مصر؛ لأن هذا المذهب لم يكن له أنصار في الأندلس والمغرب، فقد كان مذهب مالك هوالمسيطر هناك كما أشرت فيما سبق.

وبدأ قصيدته التي مدح بها الشافعي بحديث عن النحو، وما قضاه في دراسة هذا العلم، ثم ذكر أن أهله قد بادوا، ودرست آثارهم، فآلى على نفسه أن يهجره، ويتجه إلى الفقه، لأنه يرفع من قدره في الدنيا ويجزيه خير الجزاء في الآخرة، إذ الفقه أصل دين محمد، ثم اتبع بعد ذلك مذهب الشافعي، وسلك مسلكه، وذلك لأنه كم من غامض أبداه، ومجمل فصّله.

وهو فوق ذلك ابن عم رسول الله ﷺ وحسبه ذلك مجداً ورتبة عليا، وهو الذي استنبط الأصول، فكان علماً جديداً لا بدَّ منه لمن أراد أن يدرس الفقه دراسة صحيحة نافعة.

عند هذا الحد تتوقف رواية الأبيات، وهي جزء من قصيدة طويلة لم تصلنا كاملة.

وله قصيدة مدح فيها البخاري، وجهوده في جمع حديث رسول الله ﷺ، منها قوله:

أسامع أخبار الرسول لك البشرى — لقد سدت في الدنيا وقد فزت في الأخرى
تشنف آذاناً بعقد جواهر — تودّ الغواني لو تقلّده النحرا
جواهر كم حلّت نفوساً نفيسة — فحلّت بها صدراً وجلّت بها قدرا
هل الدين إلا ما روته أكابر — لنا نقلوا الأخبار عن طيب خبرا
وأدوا أحاديث الرسول مصونة — عن الزيف والتصحيف فاستوجبوا الشكرا

وإن البخـاريَّ الإمـام لجـامـع بجـامعـه منـه اليـواقيـت والـدرا
على مفرق الإسلام تاج مرصع أضـاء بـه شمسـاً ونـاراً بـه بـدرا
وبحر علوم يلفظ الدر لا الحصا فأنفِس بها دراً وأعظِم به بحرا

وله أبيات ومقطّعات في التهاني، من ذلك قوله مهنئاً والد العز بن جماعة لما أبلّ من ضعف أصابه:

أدام الإلـــه لـــك العـــافيـــه وصيَّـــر دُور العـــدا عـــافيـــه
إذا لاح مـــن بـــدركـــم نـــوره فكـــل النجـــوم بـــه خـــافيـــه
تخـــذت كـــلام الإلـــه الـــدوا فـــآيـــاتـــه كـــانـــت الشـــافيـــه
تشـــوّف نـــاس لمنصبكـــم ورتبتهـــم للعـــلا نـــافيـــه
فـــأيـــن العلـــوم وأيـــن الحلـــوم وخُلـــق مـــوارده صـــافيـــه
هـــم عصبـــة لا تنـــال العـــلا ولـــو أنهـــا قـــد سعـــت حـــافيـــه
إذا كـــان خـــرق تـــداركتـــه وليســـت لمـــا مـــزقـــت رافيـــه
فـــإن عـــنَّ خطـــب ثبـــتَّ لـــه وآراؤهـــم عنـــدهـــا هـــافيـــه

المعارضة: نظم أبو حيان قصيدة على وزن الشاطبية في القراءات بغير رموز، سماها (عقد اللآلي في القراءات العوالي)[1]، وهي أخصر وأكثر فوائد، ولكن هذه القصيدة لم ترزق حظ الشاطبية، ولم تنل شهرتها[2]، ونقل منها في البحر المحيط أبياتاً في مواضع مختلفة، من ذلك قوله[3]:

وعشـــرة أفعـــال تمـــال لحمـــزة فجـــاء وشـــاء ضـــاق ران وكَمّـــلا
بزاد وخاب طاف خاف معاً وحا ق زاغ سوى الأحزاب مَعْ صادها فلا[4]

وهناك قصيدة أخرى عارض بها قصيدة «بانت سعاد»، وقد نقل تاج

---

(١) البحر المحيط (١/ ٥٩).
(٢) الدرر الكامنة (٥/ ٧٣).
(٣) البحر المحيط (١/ ٥٩).
(٤) يعني أنه قد استثنى حمزة، «وإذ زاغت الأبصار» في سورة الأحزاب الآية: ١٠.

الدين السبكي أبياتاً منها، فكان مما قال[١]:

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول ... العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمراً من خوط قامتها ... فما انثنى الصب إلا وهو مقتول[٢]
جميلة فصّل الحسن البديع بها ... فكم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر مرمرة والنشر عنبرة ... والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج ... والخصر مختطف والريق معسول

ومنها:

واصل سراك بسير يا بن أندلس ... والطرق أدهم والأسطار[٣] معلول
يلاطم الريح منه أبيض لقف[٤] ... له من السحب المربدّ أكليل
يعلو خطارة[٥] منه شامخ جلل ... سام طفا وهو بالنكباء محمول
كأنما هو في طخياء[٦] لجته ... أيم بعدي أديم الماء شمليل[٧]

وقال:

فللرسول انشقاق البدر يشهده ... كما لموسى انفلاق البحر منقول

الغزل: كان أبو حيان يتأثر بشعر الغزل، ويجري دمعه عند سماعه[٨]، وقال كمال الدين الأدفوي قال لي (أبو حيان): «إذا قرأت أشعار العشق

---

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٣٦ ـ ٣٧)، ونفح الطيب (٣/ ٣٣٨). وانظر بيتين منها في البحر (٣/ ٤١٩).

(٢) الخَوْط: الغصن الناعم. انظر اللسان.

(٣) الأساطير: الأباطيل والأساطير أحاديث لا نظام لها واحدتها إسْطار وإِسْطارة اللسان / سطر.

(٤) اللقف: سرعة الأخذ، ورجل ثقف لقف أي خفيف حاذق وقيل سريع الفهم.

(٥) ناقة خَطّارة تخطِر بذنبها، والخِطَار: دق ذنب الجمل بين وركيه إذا خطر، والخاطر: المتبختر. اللسان / خطر.

(٦) ليلة طخياء: شديدة الظلمة وارى السحاب قمرها. اللسان / طخى.

(٧) الشماليل: البقايا، وذهب القوم شماليل: تفرقوا، والشمايل: شيء خفيف من حمل النخلة. اللسان / شمل.

(٨) نفح الطيب (٣/ ٣٩٧).

أميل إليها، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني».

ومما قاله متغزلاً بالسود[1]:

لنا غرام شديد في هوى السود ... نختارهن على بيض الطلا الغيد[2]
لون به أشرقت أبصارنا وحكى ... في اللون والعرف نفح المسك والعودِ
لا شيء أحسن من آس تركبه ... في آبنوس ولا أشفى لمبرود[3]
لا تهوَ بيضاء لون الجص واسمُ إلى ... سوداء حسناء لون الأعين السود

وهو مع مدحه السود قال مادحاً البيض أيضاً، ولم يكتف بذلك، بل ذم السود من النساء، فقال في ذلك[4]:

إذا مال الفتى للسود يوماً ... فلا رأي لديه ولا رشاد
أتهوى خنفساء كأن زفتاً ... كسا جلداً لها وهو السواد
وما السوداء إلا قِدْرُ فُرنٍ ... وكانون وفحم أو مداد
وما البيضاء إلا الشمس لاحت ... تغار العين منها والفؤاد
سبيكة فضة حشيت بورد ... يلذ السهد معها والرقاد
وبين البيض والسودان فرق ... لدى عقل به اتضح المراد
وجوه المؤمنين بها ابيضاض ... ووجه الكافرين به اسوداد

الزهد والتشاؤم والحِكمَ: عرضت فيما سبق لزهد أبي حيان وإعراضه عن الدنيا، وقد ذهب بلانثيا إلى أن بعض أشعاره تنم عن التشاؤم، وذكر أمثلة على ذلك.

وثمة أبيات كثيرة تدل على زهده وعلى تشاؤمه إضافة إلى ما ساقه في شعره من الحكم، من ذلك قوله[5]:

وزهّدني في جمعي المال أنه ... إذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٢٧).
(٢) الطلاة: العنق والجمع طُلى مثل تقاة وتقى. اللسان: طلا.
(٣) الآس: شجرة ورقها عطر أو نبت بأرض العرب كثير.
(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٢٨).
(٥) نفح الطيب (٣/ ٣٢٠).

فلا روحه يوماً أراح من العنا   ولم يكتسب حمداً ولم يدّخر أجرا

ومما قاله[1]:

وقَصّر آمالي مآلي إلى الردى   وأني وإن طال المدى سوف أهلك
فصنت بماء الوجه نفساً أبيّة   وجادت يميني بالذى كنت أملك

وقال[2]:

أما إنه لو لا ثلاث أحبها   تمنيت أني لا أعَدّ من الأحيا
فمنها رجائي أن أفوز بتوبة   تكفّر لي ذنباً وتُنجح لي سعيا
ومنهن صوني النفس عن جاهل   لئيم فلا أمشي إلى بابه مشيا
ومنهن أخذي بالحديث إذا الورى   نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا
أتترك نصاً للرسول وتقتدي   بشخص لقد بدلت بالرَّشد الغيّا

الرثاء: لم يُنقل عن أبي حيان شعر في الرثاء إلا ما ذكر في شيخه الشاطبي، فلا بد من أن يكون قد نظم شعراً في رثاء شيخه ابن النحاس وغيره من شيوخه الذي تلقى عنهم، وأخذ من علمهم، وأولى الناس بالرثاء ابنته نضار، ومع هذا ماوصلنا شيء من ذلك، ولا بد من أن يكون نظم الكثير فيها، فقد كان يحبها حباً شديداً، ويفضلها على ولده حيان.

ولقد ذكر السيوطي أن أبا حيان رثى أستاذه الشاطبي فقال[3]:

راح الرضي إلى روح وريحان   فَلْيَهنَ فيها أنْ غدا جاراً لرضوان
وافى الجنان فوافاها مزخرفة   يحفها الأهل من حور وولدان

وأما المقرّي فقد ذكر في ترجمة الشاطبي أن أبا حيان قرأ عليه كتاب (التيسير)، وأثنى عليه ولما توفي أنشد ارتجالاً[4]:

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٠).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٢٤).
(٣) بغية الوعاة (١/ ١٩٤).
(٤) نفح الطيب (٣/ ١٣٩)، وانظر الحلل السندسية (٣/ ٢٠٧).

نعوا[1] لي الرضيَّ فقلت لقد نعي لي شيخ العلا والأدب
فمن للغات ومن للثقات ومن للنحاة ومن للنسب
لقد كان للعلم بحراً فغار وإن غُؤُوْرَ البحار العجب
فقُدّس من عالم عامل أثار لشجوي لما ذهب

* * *

(١) في الحلل السندسية / نعي.

الموشحات

وصل إلينا من أبي حيان بعض الموشحات، وقد عارض في واحدة منها شمس الدين محمد بن التلمساني[(١)]:

ويذكر تلميذه تاج الدين السبكي أن موشحاته أجود شعره، ومما قاله أبو حيان[(٢)] في إحدى موشحاته:

إن كـــــان ليـــــل داج   وخـــــانـنـــــا الإصبـــــاح[(٣)]
فنـــورهـــا الـــوهـــاج   يغنـــي عـــن المصبـــاح
ســـلافـــة تبـــدو   كـــالكـــوكـــب الأزهـــر[(٤)]
مـــزاجهـــا شهـــد   وعَـــرفهـــا عنبـــر
وحبـــذا الـــورد   منهـــا وإن أسكـــر
قلبـــي بهـــا قـــد هـــاج   فمـــا تـــرانـــي صـــاح
عـــن ذلـــك النهـــاج   وعـــن هـــوى يـــا صـــاح

* * *

(١) نفح الطيب (٣/ ٣١٠).
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ٣٣ و٣٧)، وانظر نفح الطيب (٣/ ٣١٣ ـ ٣١٤) والنجوم الزاهرة (١٠/ ١١٤)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٣) في طبقات الشافعية: المصباح، وكذا في فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٤) السلافة من الخمر: أخلصها وأفضلها.

وفاته ٧٤٥ هـ

بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي أكلت من عمره ما يقرب من ثمانين عاماً، أراد الله أن يريح أبا حيان من عناء الحياة، ويخفف عنه ما لاقاه من مشقات ومتاعب، فقضى أجله في مصر بعد أن خدم علوماً مختلفة مدة تقارب الثمانين عاماً، وأفاد من حَوله كباراً وصغاراً.

وتتفق معظم المصادر إلى أن وفاته كانت سنة خمس وأربعين وسبعمئة، وذلك بعد أن فقد بصره بوقت قصير، لم يخرج على هذا التاريخ غير روايتين لا أهمية لهما أمام هذا الإجماع[١].

وكانت وفاته في القاهرة بمنزله خارج باب البحر، ودفن في مقبرة الصوفية[٢] خارج باب النصر، وصُلي عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي بدمشق.

وقد رثاه تلميذه الصفدي بقصيدة يقول فيها[٣]:

مات أثير الدين شيخ الورى ... فاستعر البارق واستعبرا
ورقّ من حزن نسيم الصبا ... واعتلّ في الأسحار لما سرى

* * *

(١) الدرر الكامنة (٦/ ٧٦)، والبدر الطالع (٢/ ٢٩٠)، وطبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٥)، والنجوم الزاهرة (١٠/ ١١١)، ومعرفة القراء الكبار (٢/ ٥٧٧)، وتاريخ ابن الوردي (٢/ ٤٨٢).

(٢) وقيل: دفن بتربة البرقية.

(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٩٢)، ونكت الهميان (٢٨٤).

مؤلفات أبي حيان

أشرت فيما سبق إلى أنه ليس من المؤكد أن أبا حيان شرع في التأليف قبل خروجه من الأندلس، وأن الكتاب الذي نُقل إلينا خبره، وأنه ألفه في الرد على شيخه ابن الطبَّاع تحت عنوان (الإلماع في إفساد إجازة الطباع)[1] لم يثبت خبره يقيناً، وذلك لأن أبا حيان لما أجاز الصفدي ذكر مؤلفاته في هذه الإجازة ولم يذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته، ولا أشار إليه، ومعظم الكتب التي ترجمت لأبي حيان أهملت ذكره أيضاً، وكأن السابقين ارتابوا في أمر هذا الكتاب، ولم يثبت خبره عندهم، فضربوا صفحاً عن ذكره.

يذكر أبو حيان في مقدمة البحر أنه صنف تصانيفه وألف تآليفه في القاهرة[2]، فإذا كان أبو حيان قد استقر في القاهرة عام (٦٨٠) ثمانين وستمئة على وجه التقريب، فذلك يعني أن عمره كان عندئذ ستة وعشرين عاماً، ومن المعقول أن يكون بعد استقراره في القاهرة بدأ بالتأليف وهو على أبواب الثلاثين.

ويُنقل عن أبي حيان أنه قد التزم ألا يقرىء أحداً إلا في كتاب سيبويه، أو (التسهيل)، أو مصنفاته[3].

ويبدو أن هذه المؤلفات قد انتشرت في ذلك العصر، وأقبل عليها الناس، قال محمد الدمشقي: «وأكثروا من كَـتْب تصانيفه في حياته»[4] أما

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٤١) وانظر ذيل كشف الظنون (١/ ١٢٢)، وأما في هدية العارفين فقد طرأ عليه التحريف فجاء باسم «الإلماع في إفساد إجازة الضياع» (٢/ ١٥١).

(٢) البحر (١/ ٤).

(٣) بغية الوعاة (١/ ٢٨٠).

(٤) ذيل التذكرة (٢٣).

الصفدي فقد قال: «وله التصانيف التي سارت وطارت، وانتشرت وما انتثرت، وقرئت ودريت، ونسخت وما مسخت، أخملت كتب الأقدمين، وألهمت المقيمين بمصر والقادمين»[1] وقال تلميذه السبكي: «اتفق أهل العصر على تقديمه وإمامته، ونشأت أولادهم على حفظ مختصراته، وآباؤهم على النظر في مبسوطاته»[2]

هذا ولم تقتصر مؤلفات أبي حيان على فن واحد من الفنون، بل ألف في موضوعات مختلفة: النحو، والتفسير، والفقه، والتاريخ، والتراجم، وله منظومات ومؤلفات في القراءات، وله ديوان شعر جمعه تلميذه الصفدي، ومن هذا نرى أنه طَرَق جوانب مختلفة من جوانب المعرفة في عصره، وليس ذلك بالقليل، فقد كان مع هذا مبرزاً في هذه الموضوعات، ولم يكن عمله خامل الذكر، أو ضعيف التكوين، أو قليل الفائدة، ولو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاهتمام بها. وسوف أرتب هذه المؤلفات بحسب موضوعاتها، أتحدث عنها بحديث موجز، معرفاً بها على قدر ما تسعف به المصادر التي تعرضت لهذه المؤلفات.

ـ التفسير:

١ ـ **البحر المحيط**: آلى أبو حيان على نفسه ألا ينظر في كتاب الله مفسراً قبل أن يصل إلى مشارف الستين من العمر، وسبب ذلك أمران:

أولهما: أنه يكون قد ملك ناصية الأدوات التي تيسر فهم القرآن، وتمكن من الحديث فيه.

ثانيهما: أنه يرى أن من أدرك الستين، أو قاربها يكون وقت رحيله إلى ربه قد دنا، ولذلك فهو لا يبيح لنفسه تضييع وقته في العلوم الأخرى، وقد

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٢٩٥)، وانظر البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ٣١).

أمضى من قبل معظم عمره فيها، وأدى دوره في نمائها على أتم وجه، وأحسن حال.

لهذا فهو ـ إن قُدِّر له أن يبلغ ذلك الحد الذي حَدَّه لنفسه ـ فسوف يقصر همته ونشاطه على النظر في كلمات الله فهي حسبه.

وحقق الله لأبي حيان هذه الأمنية التي لجلجلت في صدره، وطواها سنوات طويلة منتظراً وقتها المناسب، وقد تم له ذلك قبل بلوغ الستين وذلك عندما بنى السلطان قلاوون[١] قبة[٢] يدرس فيها التفسير، والحديث، والمذاهب الفقهية، واختار لهذه القبة رجالاً من علماء العصر المبرزين، وكان من نصيب أبي حيان: التفسير، فشرع في تدريسه في القبة، وكان يتولى في الوقت نفسه الإقراء بالجامع الأقمر[٣].

بدأ أبو حيان بالتدريس عام ٧١٠، وفي هذه السنة بدأ بتأليف كتابه، وعَدَّ وضع هذا الكتاب من بركات مصر عليه[٤]، «وبها صنفت تصانيفي وألفت تآليفي، ومن بركاتها عليَّ تصنيفي لهذا الكتاب».

وماذا فعل أبو حيان؟ هل بدأ بتسطير هذا الكتاب بمجرد أن تهيأت له الفرصة؟ إنه لم يفعل ذلك، فعلى الرغم من ثقافته الواسعة، واطلاعه العميق في مجالات مختلفة من مجالات ثقافتنا لم يكتف بذلك، بل بدأ بقراءة كتب المتقدمين ليتعرف مرة أخرى على طرائق التفسير، ومناهجه

---

(١) السلطان قلاوون هو الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي قلاوون تولى عرش مصر سنة ٦٨٧، وبعد أن عزل سلامس بن الظاهر بيبرس الذي كان قلاوون يقوم بالوصاية عليه. القاهرة (١٣٥).

(٢) القاهرة: (١٣٨)، الخطط المقريزية (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٣١٥) والجامع الأقمر يقع في شارع النحاسين، وقد بناه الوزير المأمون البطايحي بأمر من الخليفة الآمر بأحكام الله أبي علي منصور سنة ٥١٩ هـ، وهو أول جامع في القاهرة حوت واجهته تصميماً هندسياً. القاهرة (٦٨)، وانظر خطط المقريزي (٢/ ٢٩٠).

(٤) البحر (١/ ٤).

وأساليبه، ثم أخذ يلخِّص المطوَّل منها، ويحلُّ المشكل، ويقيِّد المطلق، ويفتح المقفل، ويجمع المبدَّد، وبعد تهذيب هذه المؤلفات أخذ منها ما يرضيه، وأضاف إلى ذلك ما فات المتقدِّمين ذكره، أو ما عجزوا عن إدراكه وفهمه من علم البيان، وإعجاز القرآن، وإعراب دقيق، وأدب رفيع، فجاء كتابه بحراً دونه كل بحر.

ويرى بعد هذا أبو حيان[1]: أن العلم لا يقتصر على زمان، ولا يحصر في مكان، بل جعله الله فيمن يشاء من عباده، فلا تعجب أيها القارىء من أبي حيان إذا أربى على المتقدمين، واستدرك، وزاد ما فاتهم إدراكه، بل وأضاف إلى تراث أمتنا شيئاً ليس بالقليل.

ولم يؤلف أبو حيان كتابه «البحر» إرضاء لأحد من الناس، وما تقرب به إلى بشر، وما حرص على أن ينال من ورائه نفعاً من حاكم، وما أراد من كتابه هذا استعراض ثقافته ومقدرته في عصره، وإنما أراد به وجه الله لا غير، يرجو منه قبوله، ويحرص به على رضاه وحده.

أما الفترة التي قضاها أبو حيان في تأليف هذا الكتاب فلم يصرح بها، ولم يذكر المؤرخون شيئاً من هذا، غير أن في أواخر البحر نصاً يعطينا جواباً تقريبياً، بل هو أقرب إلى اليقين من الظنِّ.

قال أبو حيان في أواخر الجزء الثامن من النسخة المطبوعة[2]: «لي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة أصحب العلماء، وأتردد إلى من ينتمي إلى الصَّلاح، فلم أر أحداً منهم صاحب إلهام صادق..»

فإذا أضفنا هذا الرقم إلى السنة التي ولد فيها وهي عام ٦٥٤ هـ، تبين أنه كان يكتب هذه الكلمات في تفسير سورة الجن عام ٧٢٧ هـ، فإذا كان قد بدأ بالبحر أوائل عام ٧١١ هـ، فمعنى ذلك أنه حتى كتابة هذه الكلمات

---

(١) البحر (١/ ٣).
(٢) البحر (٨/ ٣٥٧).

كان قد قطع من عمره ست عشرة سنة في تأليف البحر، فإذا احتاج إلى تفسير ما تبقى من السور سنة كاملة، فذلك يعني أن عمله في البحر استغرق معه سبع عشرة سنة، وهو تحديد قريب من اليقين.

وقيمة البحر في تراثنا: أنه من أواخر ما ألف أبو حيَّان، وقد حشد فيه كل ثقافته، ولم تكن محدودة، بل كانت واسعة متعددة الجوانب، ولذلك فإن من أراد دراسة أبي حيان وآرائه، فإنه لا يجد شخصية متكاملة تبدو جوانبها بينة واضحة في مؤلف من مؤلفاته كما هو الحال في البحر، فمن أقام دراسته على غير البحر فإنها دراسة ناقصة، فاتها الشيء الكثير، ولعل هذا ما دفعني لاختيار البحر لتجلية حياة أبي حيان وبيان آرائه.

ولقد جاء هذا الكتاب كبير الحجم، وكان أبو حيان يسميه بالكتاب الكبير، ولما وصل أبو حيان إلى المراحل الأخيرة منه بدت عليه علامات الإرهاق، والتعب وحق له ذلك، إن سبع عشرة سنة زمن غير قصير، يقضيها المرء في التأليف والعمل لا سيما من رجل كأبي حيان، يعرف للوقت قدره، ويعرف كيف يستغلّه، فلا يضيّع منه دقيقة واحدة إلا فيما ينفعه.

* * *

منهج أبي حيان في البحر

عرض أبو حيان منهجه الذي سار على هديه في مقدمة البحر، وقد جاء هذا المنهج على النحو التالي:

١ ـ الكلام على مفردات الآية لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة أكثر من معنى ذكر كل معانيها لينظر ما يناسبها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه.

٢ ـ تفسير الآية: ويذكر فيه سبب نزولها إذا كان لها سبب ثم المناسبة، وارتباط الآية بما قبلها، والنسخ، ثم يتحدث عن القراءات: الشاذ والمتواتر منها، ويذكر توجيه ذلك في علم العربية، ويبدي ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب من بديع وبيان.

٣ ـ يحرص على عدم التكرار في لفظ سبق، أو جملة تقدم الكلام عليها، أو في آية فسرت، بل يحيل على تلك المواضع، وإن حصل التكرار في بعض المواضع فذلك من أجل مزيد الفائدة.

٤ ـ ذكر أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما له تعلّق باللفظ القرآني، ولكنه لا يذكر أدلة الفقه، وكذلك يهمل أدلة النحو، ويحيل في ذلك على كتب هذه الأحكام، إلا أنه يذكر الدليل في بعض الأحيان إذا كان غريباً، أو خلاف ما هو مشهور، بادئاً بمقتضى الدليل، وما يدل عليه ظاهر اللفظ، مرجحاً له ما لم يصدّ عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه.

٥ ـ يبتعد في الإعراب عن الوجوه التي يتنزه عنها القرآن، مبيناً أنها مما يجب أن يُعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن الوجوه من الإعراب والتركيب؛ إذ كلام الله تعالى أفصح كلام؛ فلا يجوز فيه ما يجوزه النحاة في شعر الطرماح، والشماخ، وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة.

٦ ـ يختتم حديثه عن الآيات بنظرة فيها مبيناً ما فيها من علم البيان، والبديع، ملخصاً ذلك أحسن تلخيص.

٧ ـ يتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح فيه مضمون الآيات، وقد ينجر معها معان لم تتقدم في التفسير.

قال أبو حيان بعد ذلك: «وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله».

غير أنه بعد أن اختتم حديثه بعرض منهجه، ووعد بالالتزام به، عاد مرة أخرى فذكر أن من منهجه ما يلي:

١ ـ الحديث عن كلام الصوفية، مما فيه مناسبة لمدلول اللفظ، وقد تجنب كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحمِّلونها الألفاظ.

٢ ـ ترك أقوال الملحدين الباطنية، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله وعلى علي كرم الله وجهه، وعلى ذريته، وكانوا يسمونه علم التأويل.

٣ ـ المفسرون يشحنون تفاسيرهم بعلل النحو، ودلائل أصول الفقه، ودلائل أصول الدين، وهذا مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلماً في علم التفسير دون استدلال عليه.

٤ ـ ذكر المفسرون ما لا يصح من أسباب النزول، وحكايات لا تناسب القرآن، وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير.

هذا منهج أبي حيان، ولم يلتزمه في البحر من أوله إلى آخره، بل خرج

عليه وغيَّر وبدَّل فيه، وهذا أمر يأتي بيانه في مواضعه مما يأتي إن شاء الله تعالى.

طريقته في تفسير الآيات:

يأخذ أبو حيان السورة فيقسم آياتها إلى مجموعات يختلف عدد الآيات في كل مجموعة عما هو في الأخرى، فواحدة ثلاث آيات، وأخرى خمس آيات، وثالثة عشر آيات، وقد يكتفي بآية واحدة.

وهو يحدثك عن سبب نزول الآية إذا كان لها سبب منقول[١]، ويناقش هذه الأسباب ويحاول التوفيق بينها، أو ترجيح بعضها على بعضها الآخر[٢].

كما يتحدث عن مكان نزول الآيات، ولا يخلو حديثه من رأي أو اجتهاد له[٣].

وبعد ذلك يأخذ مفردات الآية، فيتحدث عنها ويذكر كل معانيها كما فعل في لفظ «الدِّين» في سورة الفاتحة، وينتقل بعد ذلك إلى بيان المعنى الذي أراده الشرع من بين هذه المعاني اللغوية التي عرضها[٤].

ويردد كثيراً عبارة «تفسير المعنى وتفسير الإعراب» وقد أوضح المراد بهذا التعبير السيوطي في الإتقان فقال[٥] «وقد يقع في كلامهم: هذا تفسير معنى وهذا تفسير إعراب، والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لا بد من ملاحظة الصناعة النحوية، وتفسير المعنى لا تضره مخالفة لذلك».

وكان يستعين بالحديث في تفسيره، وإذا صح عنده الحديث في

---

(١) البحر (١/ ١٠٢، ١/ ٢٧١).
(٢) البحر (١/ ٣٤٦).
(٣) البحر (١/ ٩٤).
(٤) البحر (١/ ٢١).
(٥) الإتقان (١/ ١٨٢) وانظر الأمثلة في البحر (١/ ١٨٢، ١/ ٤٢٣، ٣/ ٨٤، ٤/ ٢٥، ٦/ ٢٥٨، ٧/ ٤٦١).

التفسير لا يعدل عنه، ويوجب المصير إليه[1].

وكان يقارن بين الآيات[2]، بين ما مضى منها وبين ما يعرض له، ويبين الفرق في التركيب والأسلوب، وما إذا كان يترتب على ذلك خلاف في المراد والحكم أو لا.

وكان يحاول دائماً الربط بين الآيات، ويذكر وجه المناسبة بين الآية وسابقتها، لأن آيات القرآن لا يصح أن تكون متنافرة، فلا مفر من أن تكون كل واحدة مرتبطة بسابقتها بوجه من الوجوه[3].

ويبين في بداية السورة الجديدة وجه الارتباط[4] والعلاقة بينها وبين السورة السابقة، ليبدو القرآن وكأنه نص واحد لا انقطاع فيه، ولا انفصال ولا تفكك، وهو يتحدث عن النَّسخ في[5] مواطن كثيرة من البحر، ويبين لنا حقيقته.

وبعد هذا يلقي نظرة عامة على معاني الآيات[6]، يلخِّص معانيها بعبارة مجملة، وأما الجانب البلاغي فله موضعه الذي يأتي فيما بعد.

ولقد كان مع ما سبق لأبي حيان آراء كثيرة[7]، فهو لم يكن مجرد ناقل في تفسيره، بل كان يناقش آراء السابقين، ثم يكون له من بعد ذلك رأي يستقل به، ويسوق الأدلة التي رجَّحت هذا الرأي، وهذا الجانب من عمله

---

(١) البحر (١/ ٤٢٢، ٤/ ١٦، ٨/ ٥١٩) ومن الغرابة بمكان أن يذهب الدكتور صبحي الصالح إلى أن أبا حيان كان قليل الاهتمام بالحديث النبوي؛ فإن عمل أبي حيان في البحر واهتمامه بالحديث ينقض هذا الرأي. انظر مباحث في علوم القرآن (٢٩٧).

(٢) البحر (١/ ٢٥٥، ٤/ ٣٤، ٧/ ١١٩، ٤٠٩).

(٣) البحر (١/ ٤٦، ١٥٥، ٣٢٣).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٣٧٤، ٣/ ١٥٣، ٤/ ٢١١، ٦/ ٤٠٨، ٧/ ٥٢، ١٠٤، ٧/ ١٨٣، ٢١٠).

(٥) البحر (٢/ ١٠، ٥٠، ٤٥٢، ١/ ٢٥٨).

(٦) البحر (١/ ٣٤١).

(٧) البحر (١/ ٣٥، ٧٣، ١٣١، ١٣٤، ١٧٤، ٣/ ١٠، ٤٢١).

هو الذي سلك تفسيره مع اتجاه التفسير بالرأي.

وتجد في (بحر) أبي حيان الحديث المستفيض عن المفسرين كالزمخشري، وابن عطية، وابن النقيب، والرازي وغيرهم نقداً أو أخذاً بآرائهم، وتجد فيه الأحكام الفقهية، واللغة، والبلاغة، والحديث عن إعجاز القرآن، وبيانه.

كما تجد أحاديث عن الفرق كالشيعة، والباطنية، والكرامية، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، وغيرها، ويكثر من الحديث عن الصوفية، فلم يكن راضياً عن هؤلاء، فكان يسخر منهم، ويذكر عيوبهم، وألاعيبهم، قال في مقدمة البحر[1]:

«وربما ألمحت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ وتجنبتُ كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ..».

كما تجد فيه حديثاً عن المشايخ، والتظاهر بالصلاح، والسحر، والنفث، والخرافات، وتحريك الرؤوس عند قراءة القرآن، وكنوز المقطم، والآثار، والنقود، والمنجمين..

ولعل أهم ما فيه قراءات القرآن، وحديثه المستفيض فيها، ومسائل النحو والصرف، والخلاف فيها بين المتقدمين مما جعل بعض الباحثين يرى في كتابه هذا جنوحاً صرفاً إلى النحو، وما أصاب في حكمه.

٢ ـ النهـر:

وجد أبو حيان كتابه «البحر» واسعاً، لا يقدر على قطعه إلا من كان كأبي حيان، وندر وجود مثله في ذلك الزمان، وأحسن أن الناس سوف ينصرفون عنه لطوله فاختصروه اختصاراً لطيفاً، وسماه «النهر المادّ من البحر».

أما التاريخ الذي بدأ به بوضع هذا المختصر فإنه غير معروف.

---

(١) البحر (١/ ٥).

القراءات:

وضع أبو حيان مجموعة من المؤلفات في القراءات، وخصَّ كل واحد منها باسم قارىء من القراء المعروفين، وهم: أبو عمرو بن العلاء، والكسائي، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وحمزة، وعاصم، ويعقوب، وزيد بن علي.

وهؤلاء هم أعلام القراءات، إذ عرف كل واحد منهم في قطر من الأقطار الإسلامية بذلك، وأضاف أبو حيان مؤلفين اثنين إلى ما سبق، الأول تحت عنوان: «الحلل الحالية في أسانيد القراءة العالية» والثاني منظومة سمَّاها: «عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي»

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن طبيعة هذه المؤلفات، ولا مقدارها، ولا عن موقفه من القراء، ولا بينوا الأسلوب الذي اتبعه في عرض قراءات الأعلام السابقين، ولا ندري هل زاد شيئاً عما هو متعارف عليه في القراءات، أو نقص منها.

هذا وكثير من المراجع تهمل ذكر مؤلفاته من القراءات، ويخيل إلي أنها كانت رسائل صغيرة في هذا الموضوع، ولو بلغت حداً يكون لها خطرها فيه وقدرها لما أهملها بعض السابقين، ولأكثروا من النقل عنها، ولكنا لا نجد شيئاً من هذا.

ويبدو أن العمل المعروف له بين الناس في القراءات هو منظومته التي عارض بها الشاطبية، وقد نقل عنها في عدة مواضع في البحر، وسنرى ذلك.

وفي حديثي عن مؤلفات أبي حيان في القراءات أشير إلى المصادر التي تحدثت عنها، والأسماء التي وردت بها، مع حديث موجز أعرف به القارىء بصاحب القراءة.

١ ـ **عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي**: ورد ذكر هذه المنظومة في

معظم المراجع[1]: قال حاجي خليفة[2]: «ومنظومة كالشاطبية في الوزن والقافية لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ خمس وأربعين وسبعمئة، لم يأت فيها برمز، وزاد فيها على (التيسير) كثيراً» وذكر هذه المنظومة مرة أخرى تحت عنوان[3] «اللامية في القراءات نظم أبي حيان». وأما صاحب (هدية العارفين) فقد التبس عليه الأمر وأثبت له منظومتين[4]: أحداهما: (اللامية في القراءات) والثانية (عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي) وهما منظومة واحدة، والقافية في (عقد اللآلي) لامية فتسمى بها اختصاراً، وليس كما ذهب إليه صاحب الهدية.

وقال أبو حيان[5]: «أنشأت في هذا العلم[6] كتاب (عقد اللآلي) قصيداً في عروض قصيد الشاطبي[7]، وبه يشتمل على ألف بيت وأربعة وأربعين بيتاً، صرحت فيها بأسامي القراء، من غير رمز ولا لغز، ولا حوشي لغة، وأنشأته في كتب تسعة كما قلت:

تنظم هذا العقد من در تسعة ... من الكتب فالتيسير عنوانه انجلا
بكاف لتجريد وهاد لتبصرة ... وإقناع تلخيصين أضحى مكملا
جنيت له أنسي لفظ لطيفه ... وجانبت وحشياً كثيفاً معقلا

وقد نقل أبو حيان في (البحر) عن هذه المنظومة في عدة مواضع.

---

(١) الدرر (٥/ ٧٠)، وطبقات الشافعية (٦/ ٣١)، ونفح الطيب (٦/ ٣٠٦).
(٢) كشف الظنون (٢/ ١١٥٢).
(٣) كشف الظنون (٢/ ١٥٣٩).
(٤) هدية العارفين (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، وانظر كشف الظنون (٢/ ١٥٣٩) فقد ذكر بهذا الاسم غير أنه ذكر أن أبا حيان عارض بها الشاطبية، وحذف الرموز، وأبرز الأسماء، وهذا ما عرف في (عقد اللآلي).
(٥) البحر المحيط (١/ ٧).
(٦) القراءات.
(٧) هو الإمام القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الأندلسي، ولد سنة ٥٣٨هـ بشاطبة من قرى الأندلس، وتوفي سنة ٥٩٠هـ، ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من سفح جبل المقطم، وقبره إلى الآن. بغية الوعاة (٢/ ٢٦٠).

٢ ـ **الحلل الحالية في أسانيد القراءات العالية**:[١] ذكر هذا الكتاب ابن حجر، والسيوطي، وابن شاكر الكتبي، وورد في إجازة الصفدي، **وكذلك** حاجي خليفة، غير أنهم لم يذكروا شيئاً عن هذا الكتاب، ولا عن تلك الأسانيد، ولا نعرف القراءات التي عرضها فيه، ولم ينقل أبو حيان عنه في (البحر) شيئاً.

٣ ـ **المورد الغمر في قراءة أبي عمرو**[٢]: لم يذكر أبو حيان هذا الكتاب في (البحر)، ولم ينقل عنه شيئاً، ولم يذكره السيوطي، غير أنه ذكر في المراجع الأخرى[٣].

٤ ـ **تقريب النائي في قراءة الكسائي**[٤]: ذكرت المراجع القديمة هذا الكتاب[٥]، وبعضها أهمل ذكره، ولم ينقل أبو حيان عنه شيئاً في (البحر)، غير أنه ذكر كثيراً من قراءات الكسائي، وله رأي فيها وفيه.

٥ ـ **المزن الهامر في قراءة ابن عامر**[٦]: لم ينقل عن هذا الكتاب أبو حيان شيئاً في (البحر)، ولم يذكره، وإن كان قد أطال في الحديث عن

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧١)، والنفح (٣/ ٣٦١)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

(٢) أبو عمرو بن العلاء المازني البصري أحد القراء السبعة، توفي سنة ١٥٤.

(٣) الدرر الكامنة (٥/ ٧١)، ونفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٨) «المورد الغمر». وفي فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧): «الورد الغمر في قراءة أبي عمرو»، وانظر هدية العارفين (٢/ ١٥٣).

(٤) هو علي بن حمزة النحوي، مولى بني أسد، انتهت إليه رياسة الإقراء في الكوفة بعد حمزة الزيات، توفي سنة ١٨٩.

(٥) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، ونكت الهميان (٢٨٥)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وقد ذكره باسم «النائي في قراءة الكسائي»، ذيل الكشف (١/ ٣١٤).

(٦) هو عبدالله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان إمام الجامع، وهو من التابعين وليس في القراء السبعة من العرب غيره وغير أبي عمرو بن العلاء، والباقون مَوَالٍ. انتهت إليه مشيخة الإقراء في الشام. توفي سنة ١١٨ هـ.

ابن عامر في عدة مواضع، وقد أشارت المراجع إلى هذا الكتاب[1] غير أنها لم توضح عمل أبي حيان فيه.

٦ ـ **الأثير في قراءة ابن كثير**[2]: ذكر هذا الكتاب عدد من المراجع[3]، وذكره أبو حيان في إجازة الصفدي[4] ولكنه كتاب نعرف خبره فقط، ونقل عنه أبو حيان في (البحر).

٧ ـ **النافع في قراءة نافع**[5]: هذا الكتاب أيضاً لا نعرف غير اسمه، وقد ذكره السابقون[6] دون بيان عنه، أو رأي فيه، وأورد بعض ما فيه أبو حيان في (البحر).

٨ ـ **الرمزة في قراءة حمزة**[7]: و(الرمزة كتاب في قراءة حمزة) لم يذكر المؤرخون شيئاً غير اسمه[8]، وموقف أبي حيان من حمزة

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٨) «المزن الهامر»، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣).

(٢) هو عبد الله بن كثير الداري مولى عمرو بن علقمة الكناني، كان إمام أهل مكة في القراءة توفي سنة ١٢٠ هـ.

(٣) نكت الهميان (٢٨٣) هدية العارفين (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، ذيل الكشف (١/ ٢٤)، فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦) هذا وأهمل ذكره ابن حجر في الدرر (٥/ ٧١)، والسبكي في الطبقات (٦/ ٣١)، والسيوطي في بغية الوعاة (١/ ٢٨١)، والشوكاني في البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).

(٥) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، وهو أحد القراء السبعة، وهو إمام أهل المدينة في القراءة توفي سنة ١٦٩ هـ.

(٦) هدية العارفين (٢/ ١٥٣)، ونكت الهميان (٢٨٣)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٨) النافع، ونفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، والدرر الكامنة (٥/ ٧١) النافع.

(٧) هو حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل الزيات التميمي وهو أحد القراء السبعة، توفي بحلوان سنة ١٥٦ هـ، في خلافة أبي جعفر المنصور.

(٨) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٨) باسم الرمزة، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣) وذيل الكشف (١/ ٥٨٣) ونكت الهميان (٢٨٣).

ومناصرته له يمكن استنتاجها من كتابه (البحر).

٩ - الروض الباسم في قراءة عاصم[١]: نقل أبو حيان قراءات عاصم في (البحر) في مواضع كثيرة غير أن هذا الكتاب لا يعرف شيء عنه[٢].

١٠ - غاية المطلوب في قراءة يعقوب[٣]: هذا الكتاب من مؤلفات أبي حيان في قراءة يعقوب، وهو أحد القراء العشرة، وقد وضعه على ما يبدو نظماً، وقال حاجي خليفة: «غاية المطلوب في قراءة يعقوب نظم للشيخ أبي حيان محمد بن يوسف. .»[٤].

١١ - النيّر الجلي في قراءة زيد بن علي: ورد هذا الكتاب بأسماء مختلفة في المراجع، فقد جاء في (نفخ الطيب)[٥] في إجازة الصفدي، باسم (قصيدة النير الجلي في قراءة زيد بن علي) وفي (البدر الطالع)[٦] باسم (النير الجلي) وعند ابن شاكر الكتبي[٧] باسم (النثر الجلي في قراءة زيد بن علي) وفي (كشف الظنون)[٨] (وهدية العارفين)[٩] باسم: (البر

---

(١) هو عاصم بن أبي النجود ويقال له: ابن بهدلة، وهو اسم أمه. انتهت إليه رياسة الإقراء في الكوفة توفي سنة ١٢٠ هـ. وفي ذلك خلاف.

(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٨) «الروض الباسم»، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، ونكت الهميان (٢٨٣)، وكشف الظنون (٢/ ٩١٨)، وهدية العارفين (١/ ١٥٣).

(٣) الدرر (٥/ ٧١) غاية المطلوب، ونفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، ونكت الهميان (٢٨٣)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩) غاية المطلوب، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣).
ويعقوب هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أحد القراء العشرة، وإمام أهل البصرة توفي سنة ٢٠٥ هـ عن ثمانين سنة.

(٤) كشف الظنون (٢/ ١١٩٤).

(٥) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).

(٦) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).

(٧) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

(٨) كشف الظنون (١/ ٢٣٨).

(٩) هدية العارفين (٢/ ١٥٢).

الجلي في قراءة زيد بن علي) وفي (الدرر) باسم (العبر الجلي)[1] وهذا كله تصحيف طرأ على اسم الكتاب في النساخ.

والغالب أن زيد بن علي هو زيد بن علي بن الحسين المتوفى سنة ١٢١هـ، غير أني وجدت قارئاً بهذا الاسم وهو «زيد[2] بن علي بن أحمد ابن محمد بن عمران بن أبي بلال أبو القاسم العجلي الكوفي شيخ العراق، وكان إماماً حاذقاً ثقة، وقد توفي سنة ٣٥٨[3] ثمان وخمسين وثلاثمئة، أفيكون هو المقصود بهذا الكتاب، ولم تشر المراجع إلى شيء من هذا، ولم تعيِّنه؟».

الحـــديث:

درس الحديث أبو حيان فترة غير قصيرة في الأندلس، ومصر، وتلقاه عن الشيوخ المعروفين في عصره.

فقد قرأ البخاري على جماعة من أقدمهم إسناداً فيه العز الحراني[4]، وقرأ جامع الترمذي على ابن الزبير بغرناطة[5]، وكذلك سنن أبي داود قرأها بغرناطة على أبي زيد الربعي، وعلى آخرين في القاهرة[6].

وقد وقع لأبي حيان تساعيات كثيرة[7]، والأغرب من ذلك أنه وقع في ثلاثة أحاديث بينه وبين الرسول ﷺ ثمانية من الرواة.

ومع هذا الاطلاع على الحديث لم يرد أنه وضع مؤلفات في الحديث كما فعل في القراءات، وعندنا خبر واحد جاء في إجازة الصفدي يذكر فيه

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٧١).
(٢) غاية النهاية (١/ ٢٩٨).
(٣) فوات الوفيات (٢ / ٥٥٧)
(٤) نفح الطيب (٣/ ٣١٦).
(٥) المرجع السابق.
(٦) نفح الطيب (٣/ ٣١٧).
(٧) المرجع السابق (٣/ ٣١٨) وانظر سلسلة بعض الأحاديث التي رواها.

أبو حيان أن له جزءاً من الحديث، وهذا الجزء لم يذكره غيره، ولا ندري ما في هذا الجزء، فلعل أبا حيان ذكر فيه الأحاديث التي يرويها، وعددها قليل، ولذلك سمى هذا المؤلف «جزءاً» إذ لم تبلغ هذه المجموعة من الأحاديث أن تكون كتاباً كالكتب في هذا العلم.

الفقـــه:

أ ـ **الوهاج في اختصار المنهاج**: كتاب (منهاج الطالبين) من مؤلفات الإمام النووي[(١)] في الفقه الشافعي، وقد اختصر النووي كتاب (المحرر) للإمام الرافعي[(٢)] من أعلام المذهب الشافعي، واختصر أبو حيان مختصر الإمام النووي وسماه (الوهاج في اختصار المنهاج)، وكان أبو حيان قد بحث على الشيخ علم الدين العراقي (محرر) الرافعي[(٣)]، و(مختصر المنهاج) للنووي، ثم حفظ (المنهاج) إلا يسيراً منه، وقد أشار إلى هذا الكتاب معظم المراجع[(٤)]، فقد ذكره ابن شاكر الكتبي، وابن حجر، والسيوطي، وكذلك في (شذرات الذهب)، وكل هذه المراجع ذكرته باسم واحد لا خلاف بينها فيه، ولم ينقل أبو حيان شيئاً عن هذا الكتاب في (البحر) ولم يذكره، ولا نعرف تاريخ العمل به.

٢ ـ **الأنور الأجلى في اختصار المحلَّى**: ورد اسم هذا الكتاب بصور مختلفة، فقد ورد في (نفح الطيب) في إجازة الصفدي باسم (الأنور

---

(١) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي الشافعي أبو زكريا محيي الدين، علامة بالفقه والحديث مولده ووفاته في نوى من قرى حوران بسوريا، وإليها نسبته، تعلم في دمشق، وأقام فيها زمناً طويلاً (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) الأعلام (٩/ ١٨٤).

(٢) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم أبو القاسم الرافعي القزويني فقيه من كبار الشافعية، وكان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث، وتوفي فيها. نسبته إلى رافع بن خديج الصحابي، ولد عام ٥٥٧ وتوفي ٦٢٣ هـ. الأعلام (٤/ ١٧٩).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٩٦).

(٤) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، والدرر الكامنة (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠)، وشذرات الذهب (٦/ ١٤٦).

الأجلى في اختصار المحلى)، وكذلك في(الدرر)[(١)]، وفي (البحر المحيط)[(٢)]، أما في (فوات الوفيات)[(٣)] فقد ورد باسم (النور الأحلى واختصار المحلى)، وفي (البدر الطالع)[(٤)] باسم (الأمر الأحلى في اختصار المحلى)، وأما في (كشف الظنون) و(هدية العارفين)[(٥)] فقد ورد اسمه (الأنور الأعلى في اختصار المحلى).

ولقد نقل أبو حيان عن هذا الكتاب مرة واحدة، وذلك في حديثه عن صوم المريض والمسافر، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال أبو حيان: «قالوا واتفقت الصحابة ومَن بعدهم من التابعين وفقهاء الأمصار على جواز الصوم للمسافر، وأنه لا قضاء عليه إذا صام.. وعن ابن عباس أن الفطر في السفر عزيمة، ونقل غيره عن عبد الرحمن بن عوف أنّ الصائم في السفر كالمفطر في الحضر، وقال به قوم من أهل الظاهر.

وفرق أبو محمد بن حزم بين المريض والمسافر، فقال فيما لخصناه في كتابنا المسمى (بالأنور الأجلى في اختصار المحلى) ما نصه: ويجب على من سافر ولو عاصياً ميلاً فصاعداً الفطر إذا فارق البيوت في غير رمضان، وليفطر المريض، ويقضي بعد، ويكره صومه، ويجزي»[(٦)].

والكتاب مفقود، ولا ندري هل اقتصر عمله على اختصار (المحلى) أو كانت له آراء فقهية فيه.

٣ ـ **مسلك الرشد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد**: ورد كتاب أبي حيان

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والدرر الكامنة (٥/ ٧١).
(٢) البحر المحيط (٢/ ٣٤).
(٣) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٤) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٥) كشف الظنون (٢/ ١٦١٧)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢).
(٦) البحر المحيط (٢/ ٣٤).

بأسماء مختلفة وما أثبته هو: رواية الصفدي، في الإجازة، وكذلك في (فوات الوفيات)[1]، وأما في (البدر الطالع)[2] فقد ذكر باسم «مسلك الرشد»، وفي (هدية العارفين)[3]، «المسلك المرشد» وفي «الدرر»[4] «مسلك الرشد»، واتفقت المراجع على أن هذا الكتاب لم يكمل تصنيفه أبو حيان.

٤ ـ **الإعلام بأركان الاسلام**[5]: هذا كتاب في الفقه: ولكنا لا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً، أكان اختصاراً لكتاب فقهي بهذا الاسم؟ أو ذكر فيه آراءه الفقهية. الحديث بمثل هذا رجم بالغيب.

اللغــة:

١ ـ **إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب**: ذكر أبو حيان في إجازة الصفدي [6] أن له كتاباً بهذا الاسم، وكذلك ورد عند السيوطي[7] وابن شاكر الكتبي[8]، وبه ورد في هدية العارفين[9]، وكشف الظنون[10].

وورد في بعض المراجع[11] باسم (تحفة الأريب بما في القرآن من

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والفوات (٢/ ٥٥٧).

(٢) البدر الطالع (٢/ ٢٨٨).

(٣) هدية العارفين (٢/ ١٥٣)، وكذلك كشف الظنون (٢/ ١٦٧٨).

(٤) الدرر (٥/ ٧٢).

(٥) انظر فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩). «الأعلا» كذا ورد في نكت الهميان (٢٨٣)، ونفح الطيب (٣/ ٣٠٨)، وجاء في الدرر (٥/ ٧١) باسم الإعلام. هدية العارفين (٢/ ١٥٥).

(٦) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).

(٧) بغية الوعاة (١/ ٢٨١).

(٨) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

(٩) هدية العارفين (٢/ ١٥٢).

(١٠) كشف الظنون (١/ ٦).

(١١) كشف الظنون (١/ ٣٦٢)، وتاريخ آداب اللغة العربية (٣/ ٢٦٥).

الغريب)، وذكره الشوكاني باسم[١] (غريب القرآن) في مجلد، وذكره السيوطي مرة أخرى في كتابه (الإتقان) فقال: «النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه، ولأبي حيَّان في ذلك مختصر في كرَّاستين»[٢] أما ابن حجر، والسبكي، فلم يذكرا هذا الكتاب.

وهذا الكتاب طبع مرتين باسم (تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب)[٣].

٢ ـ الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء: ذكر أبو حيان هذا الكتاب من بين مؤلفاته، وبهذا الاسم[٤]، وجاء في (الدرر) و(البدر الطالع)[٥] باسم (الارتضاء)، أما السيوطي فقد سماه[٦] (الاتضاء في الضاد والظاء)، وكذلك صاحب (هدية العارفين)، وفي (كشف الظنون)[٧]. وهذا الكتاب تلخيص لكتاب لابن مالك في الفرق بين هذين الحرفين، وقد ألف في ذلك ابن مالك ثلاثة كتب[٨].

وصرح أبو حيان في كتابه(الارتضاء) بأنه لخصه من كتاب ابن مالك، ورتبه على حروف المعجم[٩]، وبدأ بالصحيح، ثم المضاعف، ثم المعتل، وبالثلاثي، ثم ما زاد على ذلك وما اتضح له انقلاب ألفه عن ياء

---

(١) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٢) الإتقان (١/ ١١٣).
(٣) الطبعة الأولى في مطبعة الإخلاص بحماة سنة (١٣٤٥ هـ)، والثانية في بغداد بتحقيق د. خديجة الحديثي.
(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦) وطبع الكتاب بعناية الشيخ محمد حسن آل ياسين في بغداد سنة ١٩٦١ م مع كتاب آخر لمحمد بن نشوان الحميري.
(٥) الدرر (٥/ ٧١) والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٦) بغية الوعاة (١/ ٢٨١).
(٧) هدية العارفين (٢/ ١٥٢)، والكشف (١/ ٦).
(٨) مقدمة كتاب التسهيل (ص/ ٣٣ ـ ٣٤).
(٩) الاعتضاد (ص/ ٢)، وانظر مقدمة التسهيل (ص: ٣٣).

أو واو ذكره بما اتضح له في موضعه، وإلا تركه على حاله، ثم ضبط الكلمات بالنقط والشكل. وما له قانون اكتفى بذكر القانون[١]، ولم يحصر أفراده، وأما ما لا قانون له فقد حصر مفرداته جميعها.

مؤلفاته في النحو:

١ ـ **التذكرة**: هذا كتاب في النحو وضعه أبو حيان في أربعة مجلدات، وسماه بعضهم باسم (تذكرة في العربية)[٢]، وكان أبو حيان يصف كتابه هذا بأنه «الكبير» ويبدو أنه كان كذلك[٣].

٢ ـ **الشذا في مسألة كذا**: ألف أبو حيان هذا الكتاب جواباً على سؤال من شمس الدين الحنفي قاضي القضاة عندما ذهب من الشام إلى القاهرة ليتولى قضاء الديار المصرية[٤]، وهذا الكتاب مفقود، نقل منه أبو حيان بعض النصوص في كتبه الأخرى[٥].

وقد شرح تلميذه ابن هشام هذا الكتاب بكتاب سماه: (فوح الشذا في مسألة كذا)[٦]، وقد ألحقه السيوطي بكتابه (الأشباه والنظائر)[٧] تحت عنوان (تهذيب ابن هشام لكتاب الشذا في أحكام كذا لأبي حيان).

٣ ـ **الشذرة**: هذا كتاب في النحو، ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي[٨] وابن حجر، والسيوطي[٩]، وقد ذكره ابن شاكر الكتبي[١٠]

---

(١) انظر الارتضاء (ص/ ١١٠) حرف الجيم.
(٢) هدية العارفين (٢/ ١٥٢)، كشف الظنون (١/ ٣٩٣).
(٣) وقد طبع جزء منه بتحقيق د. عفيف عبد الرحمن سنة ١٩٨٦ م.
(٤) التذييل والتكميل (٣/ ١٥٢).
(٥) التذييل والتكميل (٣/ ١٥٢) الارتشاف (٥٨).
(٦) طبع الكتاب في بغداد عام ١٩٦٣ م تحقيق دكتور أحمد مطلوب.
(٧) الأشباه والنظائر (٤/ ١٥٢).
(٨) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).
(٩) الدرر (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١).
(١٠) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

باسم (الكتاب الشذور)، وذكره صاحب (هدية العارفين)[١] باسم (الشذرة الذهبية في علم العربية)، والكتاب مفقود، وليس بين أيدينا ما يدل على أسلوبه فيه، والموضوعات التي طرقها، ولا نعرف حجم الكتاب.

٤ ـ **غاية الإحسان في علم اللسان**: ذكر هذا الكتاب أبو حيان باسم[٢] (غاية الإحسان)، وبهذا الاسم جاء في عدد من المصادر[٣]، أما صاحب (البدر الطالع) فقد ذكره باسم (غاية الإحسان بالنكت الحسان)[٤].

وقد ألف أبو حيان هذا الكتاب عام (٦٨٩ هـ)، وذكر في مقدمته أنه مقدمة لطيفة في النحو، سهلة الشرح، فيها أكثر أصول هذا العلم، وقد سار فيها على منهج أهل البصرة[٥].

٥ ـ **النكت الحسان في شرح غاية الإحسان**: وهو شرح لكتابه السابق، فقد وضع (غاية الإحسان) موجزاً مختصراً، غايته مساعدة المبتدئين على فهم هذا العلم، واستظهار بعض قواعده، ولما وجد أن الإيجاز فيه جاوز الحد عاد إلى شرحه مرة أخرى، وقد ذكر في مقدمة هذا الشرح أنه أوضح المشكل، وفتح المقفل، وقد يذكر حكم ما لم يسبق له ذكر، وأشار إلى أن حجم هذا الشرح صغير، غير أن فيه فوائد عظيمة.

ولهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب رقم (٣٦٤) بخط تلميذ أبي حيان ابن مكتوم القيسي.

٦ ـ **القول الفصل في أحكام الفصل**: ذكر أبو حيان هذا الكتاب في

---

(١) هدية العارفين (٢/ ١٥٣).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).
(٣) الدرر (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١).
(٤) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٥) غاية الإحسان (ص/ ٢) والكتاب مخطوط، وله نسخة في الظاهرية بدمشق، وأخرى في دار الكتب في مصر.

إجازة الصفدي[١]، وبهذا الاسم جاء عند المتقدمين[٢]، أما في هدية العارفين فقد جاء[٣] «باسم الفصل في أحكام الوصل»، وهو تصحيف، والكتاب مفقود غير أن أبا حيان أشار إليه في (البحر) في ثلاثة مواضع[٤].

٧ ـ **اللمحة البدرية في علم العربية**: وهو كتيّب ذكره أبو حيان في الإجازة، وكذا ورد في معظم المصادر[٥]، غير أنه ورد أيضاً باسم (الملحة)[٦]. وقد كتبه أبو حيان سنة ٦٨٩ هـ ولابن هشام شرح عليه، وكذلك شرحه غيره[٧].

٨ ـ **نهاية الإغراب في علمي التصريف والإعراب**: هذا أرجوزة لأبي حيان لم يكمل تصنيفها[٨] وهي مفقودة، وقد نقل عنها أبياتاً في (الارتشاف) وفي (منهج السالك).

مؤلفات مشكوك في نسبتها إلى أبي حيان:

١ ـ **فضل النحو**: ذكر بلانثيا[٩] أن من بين مؤلفات أبي حيان كتاباً اسمه (فضل النحو)، وأشار إلى أن له نسخة مخطوطة في مكتبة برلين وهذا الكتاب لم أجد له ذكراً فيما رجعت إليه من مصادر، ولعل الأمر التبس على بلانثيا، فقد يكون الكتاب المذكور لغير أبي حيان.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).
(٢) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، ونكت الهميان (٢٨٣)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٣) هدية العارفين (٢/ ١٥٣).
(٤) البحر (١/ ٣٨٨، ٣/ ٤٤٤، ٨/ ٣٦٧).
(٥) الدرر (٥/ ٧١) وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٦) مفتاح السعادة (١/ ١٩٩)، وكشف الظنون (٢/ ١٨١٨).
(٧) كشف الظنون (٢/ ١٥٦١) و(١٨١٨). وللكتاب نسخ في الظاهرية ودار الكتب، وطبع شرح ابن هشام بتحقيق هادي نهر ١٩٧٧ م.
(٨) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧) وانظر هدية العارفين (٢/ ١٥٣)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، والدرر (٥/ ٧١) وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٩) تاريخ الفكر الإسلامي (١٨٧).

٢ ـ إعراب القرآن: وهذا الكتاب لم يذكره أبو حيان، ولا تحدث عنه من ترجم له، وإنما جاء حديث عنه وعن مخطوطاته في فهرس المخطوطات العربية بالمغرب.

٣ ـ الهداية في النحو: ولم أجد لهذا الكتاب ذكراً في كتب السابقين، كما أن أبا حيان لم يذكره، وقد ذكرت هذا الكتاب الدكتورة خديجة الحديثي[(١)]، إذ وجدت بعض المخطوطات في دار الكتب ضمن مجموعات نحوية وشكت في نسبة الكتاب إلى أبي حيان وهو شك في محله.

وهناك كتابان مفقودان لأبي حيان، يتعلقان بكتاب سيبويه، وهما:

١ ـ الإسفار الملخص من كتاب الصفار: أما الصفار؛ فهو أبو الفضل البطليوسي قاسم بن علي المشهور بالصفار المتوفى بعد سنة (٦٣٠)[(٢)]، وذكر أن شرحه من أحسن الشروح لكتاب سيبويه، وأخذ الكتاب أبو حيان فلخَّصه وسماه[(٣)]: (الإسفار الملخص من كتاب الصفار) وهذا الكتاب مفقود ليس لدينا خبر عنه غير اسمه، ولا نعرف عمل أبي حيان فيه، ولا صورة تلخيصه، ولم ينقل عنه شيئاً في كتبه الأخرى، ولو فعل لمكَّننا من أخذ فكرة عن عمله فيه، وقد وهمت الدكتورة الحديثي وظنت أنه شرح لكتاب سيبويه ألفه أبو حيان[(٤)].

٢ ـ التجريد لأحكام سيبويه: قال حاجي خليفة[(٥)]: «.. أخذه أثير

---

(١) «أبو حيان النحوي» ص(١٥٥) وما بعدها، وانظر معجم المطبوعات (١/ ٣٠٨).
(٢) بغية الوعاة (٢/ ٢٥٦).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٢)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢)، وكشف الظنون (١/ ٨٦٠)، ونكت الهميان (٢٨٣).
(٤) أبو حيان النحوي (١٧٣).
(٥) كشف الظنون (٢/ ١٤٢٨).

الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي ولخصه، وسماه (الإسفار الملخص من شرح سيبويه للصفار، وجرد أحكام الكتاب في كتاب سماه (التجريد)»، وقد ذكره أبو حيان ـ رحمه الله ـ في إجازة الصفدي باسم[١]: (التجريد لأحكام سيبويه)، وبذلك الاسم ورد معظم المراجع[٢] التي نقلت إلينا سيرة أبي حيان، والكتاب مفقود.

مع مؤلفات ابن عصفور: ابن عصفور هو علي بن مؤمن... الحضرمي الإشبيلي الأندلسي[٣]، ولد سنة وسبع وتسعين وخمسمئة بإشبيلية، ونشأ فيها، وتلقَّى دراسته فيها أيضاً، وكان يتنقَّل بين الأندلس وتونس، وشيخه المشهور هو أبو علي الشلوبين عمر بن محمد الأزدي، ولا أريد هنا أن أتحدث عن مكانة ابن عصفور عند أبي حيان، فلذلك موضعه من هذا البحث، ولابن عصفور مؤلفات[٤] يهمني منها ثلاثة: وهي اثنان في النحو وواحد منها في الصرف، أما النحو فقد وضع فيه كتاب (المقرّب)[٥]، ثم هناك شرح له كان يسمى (الشرح الكبير)، لقد اختصر أبو حيان (المقرِّب) ثم وضع (كتاب التدريب) فيه أيضاً، ثم تناول بالاختصار كتاب (الشرح الكبير) وسمى مؤلفه (الموفور).

التقريب: اهتم أبو حيان بكتاب ابن عصفور (المقّرب) واختصره، وسمى هذا المختصر[٦]، (التقريب)، وبهذا الاسم ورد في معظم

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ٣١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢)، ونكت الهميان (٢/ ١٥٢).
(٣) بغية الوعاة (٢/ ٢١٠).
(٤) شذرات الذهب (٥/ ٣٣٠ ـ ٥٣١).
(٥) طبع هذا الكتاب الباحثان أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري في بغداد عام ١٩٧١ في جزأين.
(٦) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).

المراجع[1] التي ترجمت لأبي حيان، وبعض هذه المراجع كان يزيد على هذه التسمية مايوضح صلة هذا الكتاب بالمقرب فيسميه (التقريب مختصر المقرب)[2]. ذكر أبو حيان في مقدمة (التقريب) أنه جرد (المقرب) في رسالة مختصرة لطيفة ميسرة، يسهل حفظها، وترك في عمله هذا التعليل، والأمثلة، كما غَيّر في ترتيب الكتاب، وأما الحدود التي حدها ابن عصفور فقد تركها على حالها، لم يغيِّر فيها شيئاً عما ذكره ابن عصفور، كما بيَّن أن ابن عصفور أهمل بعض الأحكام وترك بعض الأبواب، فلم يستدرك عليه أبو حيان شيئاً.

التدريب في تمثيل المقرب: ذكر أبو حيان هذا الكتاب في إجازة الصفدي باسم (التدريب)، وكذلك ورد في المراجع الأخرى[3]. قال حاجي خليفة: «مختصر المقرب في النحو، وهو المسمى (بالتقريب) لأبي حيان، ثم شرح هذا المختصر وسماه (التدريب) وهو كالكافية حجماً..»[4]. والذي دعا أبا حيان إلى وضع هذا الشرح لكتابه التقريب أنه وجد أن الاختصار كان شديداً، وهذا يَسهُل حفظه غير أنه يصعب فهمه، لأنه بالغ في الاختصار، فعاد إلى (التقريب) وشرحه بكتابه (التدريب)، وقد ذكر فيه الأمثلة، ووضح المجمل، وبيَّن المبهم، فجاء شرحاً للاثنين معاً: (التقريب) و(المقرب)[5].

الموفور: وهو اختصار لكتاب ابن عصفور المسمى (الشرح الكبير)

---

(١) طبقات الشافعية (٦/ ٣٢)، والدرر الكامنة (٥/ ٧١)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، وفوات الوفيات: (٢/ ٥٥٧).

(٢) بغية الوعاة (١/ ٢٨٢)، وكشف الظنون (٢/ ١٨٠٥)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).
والدرر الكامنة (٥/ ٧١)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٢).

(٤) كشف الظنون (٢/ ١٨٠٥).

(٥) التدريب (ص/ ٤) عن خديجة الحديثي. وللكتاب عدة نسخ مخطوطة.

الذي اختصر فيه كتابه (المقرّب) وقد جاء في بعض المصادر باسم (الموفور في تحرير أحكام ابن عصفور)[1].

المبدع[2]: وهو تلخيص لكتاب ابن عصفور، (الممتع في التصريف).

مع مؤلفات ابن مالك:

١ ـ **التكميل شرح التسهيل**: ألف ابن مالك كتاباً في النحو أسماه (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) ثم شرحه، ولكنه لم يتم هذا الشرح، وكان أبو حيان معجباً بالكتاب وشرْحه فأتم هذا الشرح بكتاب سماه(التكميل لشرح التسهيل)، والكتاب مفقود ولكن أبا حيان أشار إليه في البحر في مواضع عدّة.

٢ ـ **التذييل والتكميل شرح التسهيل**: وهو شرح آخر لكتاب ابن مالك (التسهيل)، ولكنه شرح تام، ألفه بعد كتابه (التكميل). وللكتاب نسخ في أماكن مختلفة، وقد أحال أبو حيان عليه في مسائل كثيرة في كتابه (البحر) وكان يسميه أيضاً (شرح التسهيل) و(التذييل شرح التسهيل).

٣ ـ **التخييل الملخص من شرح التسهيل**: ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي[3]: وذكره السيوطي فقال: «التخييل الملخص من شرح التسهيل للمصنف وابنه بدر الدين»[4]، وقال حاجي خليفة: «تسهيل الفوائد، ومن الشروح شرح العلامة أثير الدين أبي حيان لخص فيه شرح المصنف وتكملة ولده، وسماه: (التخييل الملخص من شرح التسهيل)[5]

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، والدرر: (٥/ ٧١)، وكشف الظنون (٢/ ١٩١٠)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣)، وللكتاب نسخة في دار الكتب بخط أبي حيان.

(٢) منه نسخة بخط أبي حيان في دار الكتب.

(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)

(٤) بغية الوعاة (١/ ٢٨٢).

(٥) كشف الظنون (١/ ٤٠٥)، وانظر هدية العارفين (٢/ ١٥٢).

ولا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً، كما أنه لم ينقل عنه في البحر، ولم يُحل عليه في موضع من المواضع.

٤ ـ **ارتشاف الضَّرب من لسان العرب**: قال السيوطي[١]: «الارتشاف ومختصره مجلدان، ولم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين، ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال، وعليهما اعتمدت في كتابي جمع الجوامع نفع الله تعالى به» وبهذا الاسم ورد كتاب أبي حيان في كتب المتقدمين، ولقد أوضح عمله في هذا الكتاب في المقدمة فذكر أنه جعله في جملتين:

الأولى: في أحكام الكلمة قبل التركيب وسماها «الأحكام الإفرادية».

الثانية: في أحكامها بعد التركيب وسماها «أحكام الكلمة حالة التركيب».

أما حديثه في القسم الأول فقد تناول فيه مواد الكلم ومنها حروف المعجم وحروف العربية عدداً ومخرجاً وصفة.

وأما القسم الثاني فأمره واضح من عنوانه.

وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق مصطفى أحمد النمّاس في ثلاثة أجزاء، وكان ذلك في عام / ١٩٨٤ م.

٥ ـ **منهج السالك إلى ألفية ابن مالك**: بهذا الاسم ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي[٢]، وقد ذكر أن هذا الكتاب مما لم يكمل تصنيفه، وبهذا الاسم ورد عند المتقدمين[٣] أيضاً.

---

(١) بغية الوعاة (١/ ٢٨٢).
(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).
(٣) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، والدرر (٥/ ٧١)، ونكت الهميان (٢٨٣)، وكشف الظنون (١/ ١٥٣) وهدية العارفين (٢/ ١٥٣).

شرح أبو حيان ألفية ابن مالك، وكانت غايته من هذا الشرح ثلاثة مقاصد[1]:

١ ـ تبيين مقيَّد أطلقه، وواضح أغلقه، ومخصّص عمَّمه، ومعيَّن أبهمه، ومفصَّل أجمله، وموجز طوَّله.

٢ ـ التنبيه على الخلاف الواقع في الأحكام، ونسبته إن أمكن إلى من ذهب إليه الاختلاف والنزاع. . .، وربما اختار ما ليس بالمختار ولا المشهور، وترك ما عليه العمل من مذاهب الجمهور مقتفياً في ذلك كوفياً ضعيف الأقوال أو بصرياً لم ينسج لشذوذه على منوال. . .

٣ ـ كل ما يهجس في أنفس النشأة من مشكلاتها، وفتح ما يلبس من مقفلاتها.

٦ ـ **شرح تحفة المودود**: وهو شرح قصيدة ابن مالك الهمزية المسمّاة: (تحفة المودود في المقصور والممدود)، وذكر صاحب هدية العارفين[2] أن أبا حيان شرحها، ولم أجد هذا الخبر عند غيره ممن أرّخ له وذكر مؤلفاته.

* * *

---

(١) انظر منهج السالك (١ ـ ٢) وقد طبع سنة (١٩٤٧ م) في أمريكا.

(٢) هدية العارفين (٢/ ٥٢) وانظر ما قاله محقق كتاب التسهيل في المقدّمة ص(٣٢).

البلاغة

خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان: ذكر أبو حيان من بين مؤلفاته أرجوزة في البلاغة سماها[1] (خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان)، وقد وردت هذه الأرجوزة بأسماء مختلفة[2]، وهذه الأرجوزة مفقودة.

العروض

الأبيات الوافية في علم القافية: ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي، وقد جاء ذكر هذا الكتاب في بعض المراجع[3] عند المتقدمين، وهو من كتب أبي حيان المفقودة.

الشعر

لأبي حيان كتابان في الشعر، وديوان جمعه تلميذه الصفدي:

١ ـ نوافث الزهر في دمائث الشعر: بهذا الاسم ذكره أبو حيان[4]، ولا ندري ما موضوع هذا الكتاب، وهل هو شعر، أو نثر يتحدث به عن الشعر، وقد جاء عند ابن حجر[5] باسم «نوافث السحر» وذكره الشوكاني

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣)، ونكت الهميان (٢٨٤).

(٢) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، والدرر (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١).

(٣) الدرر (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٢)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وكشف الظنون (١/ ٦).

(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣).

(٥) الدرر (٥/ ٧١).

باسم[1] «يواقيت السحر» وذكره ابن شاكر الكتبي[2] «نوافث السحر في دماثة الشعر».

٢ ـ **نثر الزهر في نظم الزهر**: هذا هو الكتاب الثاني وموضوعه غير معروف، وقد جاء بهذا الاسم في الإجازة[3]، وذكره ابن شاكر باسم[4] «نثر الدرر ونظم الزهر».

٣ ـ **الديوان**: ذكرتُ فيما سبق أن الصفدي جمع شعر أبي حيان، وانتقى منه، وسمعه منه أيضاً، ثم جمعه في ديوان[5] وقد ذكرت خديجة الحديثي[6] أنها عثرت على هذا الديوان وهو في (١٨٧) ورقة.

* * *

(١) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٢) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦)، وكذلك في الدرر (٥/ ٧١)، وهدية العارفين (٢/ ٥٣).
(٤) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).
(٥) نكت الهميان (٢٨١).
(٦) أبو حيان النحوي (٢٥٩).

التاريخ

لأبي حيان ثلاثة كتب في التاريخ وهي:

١ ـ **مجاني الهصر في آداب وتواريخ أهل العصر**: على هذه الصورة ورد اسم الكتاب عن أبي حيان في إجازة الصفدي، غير أنه جاء محرفاً في المراجع الأخرى[١]، ولا أعرف عن الكتاب أكثر من هذا.

٢ ـ **مشيخة ابن أبي منصور**: جاء في نفح الطيب بهذا الاسم[٢] غير أنه جاء عند الصفدي باسم [٣] «مشيخة أبي المنصور» وبالاسم الأول ورد عند المتقدمين[٤]، ولا نعرف من عنى بأبي المنصور.

٣ ـ **نفحة المسك في سيرة الترك**: ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي، وبهذا الاسم ورد عند الآخرين،[٥] وممن تتبَّعوا مؤلفات أبي حيان، والكتاب مفقود.

السير والتراجم

١ ـ **تحفة الندس في نحاة الأندلس**: ذكره في إجازة الصفدي [٦]، وقد

(١) نفح الطيب (٣/٣٠٨)، وفوات الوفيات (٢/٥٥٧)، والدرر (٥/٧١)، والهدية (٢/١٥٣)، وكشف الظنون (٢/١٦١١)، ودائرة المعارف الإسلامية (١/٣٣٢).

(٢) نفح الطيب (٣/٣٠٧).

(٣) نكت الهميان (٢٨٣).

(٤) فوات الوفيات (٢/٥٥٧)، وهدية العارفين (٢/١٥٣).

(٥) نفح الطيب (٣/٣٠٦)، وانظر فوات الوفيات (٢/٥٥٧)، وهدية العارفين (٢/١٥٣).

(٦) نفح الطيب (٣/٣٠٦)، وانظر الفوات (٢/٥٥٧)، والدرر (٥/٧١).

ذكره السيوطي باسم (نحاة الأندلس)[١]، ويتضح مضمون الكتاب من اسمه، وهو مفقود، ولو وصل إلينا لوصلت أخبار كثيرة عنهم، فأبو حيان أدرى بشعاب مكة من غيره.

٢ ـ **البيان في شيوخ أبي حيان**: قال ابن حجر: «.. وأكثر من سماع الحديث حتى بلغت عدة شيوخه أربعمئة، وأجاز له جمع جم، وقد جمعهم في كتاب (البيان في شيوخ أبي حيان) فبلغوا ألفاً وخمسمئة»[٢] وخبر هذا الكتاب انفرد به ابن حجر، ولم أجد له ذكراً عند غيره، ولم تذكره خديجة الحديثي في بحثها.

٣ ـ **النضار في المسلاة عن نضار**[٣]: هو سيرة ذاتية تحدث فيه أبو حيان عن نفسه، ومقامه بالأندلس، ثم ارتحاله ودراسته، وشيوخه حتى ذلك التاريخ، وقد ألَّفه بعد وفاة ابنته «نضار» سنة ٧٣٠ هـ، ونقل السيوطي منه كثيراً في (بغية الوعاة).

كتب أخرى

١ ـ **نكت الأمالي**: كذا ذكره أبو حيان[٤] ـ ولا نعرف موضوعه ـ وقد ذكره الشوكاني باسم (نكت الإملاء)[٥].

٢ ـ **فهرست مسموعاته**: ذكره في إجازة الصفدي، وكذلك نقله عنه تلميذه[٦]، وابن حجر[٧]، والكتاب مفقود.

---

(١) بغية الوعاة (١/ ٢٨١).
(٢) الدرر (٥/ ٧٤).
(٣) ووهم صاحب هدية العارفين (٢/ ١٥٣)، فَعَدّه كتابين وهما عنده «نضار في اشتغاله ورحلته وشيوخه» و«النضار في المسلاة عن نضار».
(٤) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).
(٥) البدر الطالع (٢/ ٢٨٩).
(٦) نفح الطيب (٣/ ٣٠٦).
(٧) الدرر (٥/ ٧١).

٣ ـ **قطر الخبيّ في جواب أسئلة الذهبي**: الكتاب مفقود، وقد نقل عنه ابن حجر في (الدرر)[1]، ويبدو أنه جمع أسئلة الذهبي لكثرتها في كراسة أو اثنتين، وسمّاها بهذا الاسم.

* * *

(١) الدرر (٥/ ٢٣٤)، وانظر نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).

مؤلفات في التركية
والفارسية والحبشية

بينت فيما سبق عند حديثي عن ثقافة أبي حيان أنه اطلع على التركية والفارسية والحبشية، وأتقنها، وألف فيها. ويبدو أن دراسته لهذه اللغات وبخاصة الفارسية والتركية كانت عقب نزوله مصر بعد اختلاطه بالترك الذين كانوا ملوك العصر[١]، وأما الحبشية فيبدو أنه درسها في طريق عودته من الحجاز، وقبيل دخوله مصر على أن عمل أبي حيان هذا الذي أثنى عليه الناس في عصرنا هذا، ورأوا فيه عملاً جليلاً، لم يعرف عند معاصريه، ورأى فيه بعض السابقين تضييعاً للعمر، لا خير فيه، ولا نفع يرتجى منه[٢].

أ ـ **في التركية**: وضع أبو حيان في نحو اللغة التركية ثلاثة كتب:

١ ـ **الإدراك للسان الأتراك**: ذكر أبو حيان هذا الكتاب في إجازة الصفدي[٣]، وأشارت إليها المراجع التي ترجمت له، وقد طبع هذاالكتاب سنة ١٣٠٩ بالقسطنطينية[٤] وذكر أبو حيان في مقدمة كتابه هذا أسباب تأليفه، فذكر أنه ألف في العربية كثيراً، وغرضه من هذا الكتاب ضبط

---

(١) معجم المطبوعات (١/ ٣٠٨).

(٢) نفح الطيب (٣/ ٣٤٠).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧).

(٤) الدرر (٥/ ٧١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وكشف الظنون (١/ ٤٩)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٢)، ومعجم المطبوعات (١/ ٣٠٨).

اللسان التركي، وترتيب الكلام على حروف المعجم باللسان التركي، وهو يذكر اللفظة التركية، ويتبعها بمفرداتها من اللغة العربية، ثم يتبع ذلك بعلم التصريف والنحو.

٢ ـ **الكتابان الآخران في نحو التركية وهما: الأول**: (الأفعال في لسان الترك) **الثاني**: (زهو الملك في نحو الترك)[١]، والكتابان مفقودان: فلا نعرف شيئاً عن طبيعة عمله فيهما.

في الفارسية: وألف أبو حيان كتاباً في الفارسية سماه: (منطق الخرس في لسان الفرس)[٢]، ولا نعرف موضوع الكتاب، هل هو في اللغة أو في النحو، وهل سار فيه على نهجه في الإدراك أو اتبع فيه أسلوباً جديداً يتناسب مع هذه اللغة، فالكتاب مفقود ولم يأتنا غير اسمه.

في الحبشية: وقد نقل أن له كتابين في الحبشية، أما الأول فقد جاء باسم(نور الغبش في لسان الحبش)، والثاني فهو باسم: (المخبور في لسان اليحمور)[٣] والكتابان لم يكمل أبو حيان تصنيفهما، وهما مفقودان لا نعرف شيئاً عن طبيعة العمل فيهما.

غير أن أبا حيان أشار إلى الكتاب الأول في (البحر) ونقل منه، وسماه (جلاء الغبش عن لسان الحبش)، وكان ذلك في حديثه عن الكاف في لفظ «الكوكب».

* * *

(١) نفح الطيب (٣/ ٣٠٧)، والدرر الكامنة (٥/ ٧١)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١).

(٢) فوات الوفيات (٢/ ٥٥٧)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، وشذرات الذهب (٦/ ١٤٥)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، والدرر (٥/ ٧١)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣).

(٣) نفح الطيب (٣/ ٣٠٨)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨١)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٩)، والدرر (٥/ ٧١)، وهدية العارفين (٢/ ١٥٣)، كشف الظنون (٢/ ١٩٨٣)، وفوات الوفيات (٢/ ٥٥٧).

مؤلفات أخرى مشكوك في نسبتها إلى أبي حيان

١ ـ **الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع**/ وقد سبق الحديث عنه.

٢ ـ **بغية الظمآن من فوائد أبي حيان**: لم يذكره المتقدمون، وقد نقلته خديجة الحديثي[1] عن فهرس الفهارس.

٣ ـ **فهرست مروياته**: لم يأت خبر عنه في كتب المترجمين لأبي حيان، ونقلته الحديثي[2] عن فهرس الفهارس.

٤ ـ **البر الجلي والنظر الخفي**: انفرد بذكره حاجي خليفة[3]، ولم أجده عند غيره.

٥ ـ **نقد الشعر**: ذكرته خديجة الحديثي[4] نقلاً عن العزاوي، ولم ينقل خبراً عنه المتقدمون.

* * *

---

(١) أبو حيان (٢٦٠).

(٢) أبو حيان (٢٦١).

(٣) كشف الظنون (١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

(٤) أبو حيان النحوي (٢٥٧).

من آراء أبي حيان
النحوية والصرفية

من آراء أبي حيان النحوية

«أَلاَ»: ذكر أبو حيان أن «ألاَ»[1] حرف تنبيه، وقد زعم النحويون أنه مركب من همزة الاستفهام ولا النافية للدلالة على تحقيق ما بعدها.

والذي ذهب إليه أبو حيان أنها حرف بسيط، ودعوى التركيب على خلاف الأصل، وما زعموه من أنّ همزة الاستفهام دخلت على لا النافية دلالة على تحقيق ما بعدها خطأ؛ لأن مواقع «ألا» تدل على أنّ «لا» ليست للنفي فيتم لهم ما ادّعوه، وضرب مثلاً على ذلك بقوله: «ألا ترى أنك تقول: ألا إنّ زيداً منطلق، إذ هذا ليس من تراكيب العرب».

«لا» العاملة عمل ليس: ذهب أبو حيان إلى أنّ إعمال «لا» عمل ليس قليل جداً، ويمكن النزاع في صحته، وإنْ صحّ فيمكن النزاع في اقتياسه.

وقال في موضع آخر[2]: «إعمال (لا) إعمال (ليس) قليل جداً، لم يجىء منه في لسان العرب. إلاّ ما لا بال له. . .، ولا ينتهي من الكثرة بحيث تبنى عليه القواعد».

«لات»: ذكر أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] أنّ عيسى بن عمر قرأ ﴿ولات حينِ مناص﴾ بالخفص[3]، ورأيُ أبي حيان أن

---

(١) البحر (١/ ٦١ ـ ٦٤) وذهب إلى التركيب فيها ابن يعيش في شرح المفصل (٨/ ١١٥).

(٢) البحر: (١/ ١٩٦)، وانظر التذييل والتكميل (٢/ ٢٥ب).

(٣) البحر (٢/ ٨٨)، وفي الهمع (١/ ١٢٥) قال ابن مالك عملها أكثر من عمل (إنْ)، وقال أبو حيان الصواب عكسه. وانظر شرح الأشموني (١/ ٢٠٨).

الجر[1] هنا على إضمار «من» كأنه قال: لات من حين مناص، ويكون موضع من حين مناص رفعاً أنه اسم لات بمعنى ليس كما تقول: ليس من رجل قائماً، والخبر محذوف، ونقل السمين[2] هذا عن أبي حيان، واستغرب البغدادي قول أبي حيان هذا.

لعلَّ: من معاني (لعلَّ) الاستفهام، وقد أثبت لها ذلك الكوفيون، ولهذا عُلّق[3] بها الفعل، وقد ذهب فيها هذا المذهب أبو حيان في مواضع في البحر، ومن ذلك ما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ﴾ [الأنبياء: ١١١].

وقال أبو حيان[4]: «ولعل هنا: معلِّقة أيضاً، وجملة الترجي هي مصب الفعل، والكوفيون يُجْرون (لعل) مجرى (هل)، فكما يقع التعليق عن (هل) كذلك عن (لعل)، ولا أعلم أحداً ذهب إلى أن لعل من أدوات التعليق، وإنْ كان ذلك ظاهراً فيها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣][5] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣][6].

لِمَ: ذهب بعض النحاة إلى إلحاق (لِمَ) (بلَمْ) في عمل الجزم، وقد ذهب إلى ذلك أهل التفسير، وكان ذلك في قراءة عبيد بن عمير في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] فقد قرأهما: لم تلبسوا وتكتموا.

---

(١) البحر (٧/ ٣٨٤)، وفي منهج السالك (٦٦) زعم الفارسي أنّ لات قد تخفض بها أسماء الزمان، ولا يعرف ذلك البصريون في الكلام، وتأولوا ذلك في الشعر على حذف حين. اهـ هذا نص أبي حيان، ولعل صوابه على حذف من.

(٢) انظر خزانة الأدب (١/ ١٥٣).

(٣) مغني اللبيب (١/ ٣١٩)، والبرهان (٤/ ٣٩٤)، وفي الهمع (١/ ١٥٤) وعد أبو علي الفارسي من المعلِّقات لعل، ووافقه أبو حيان.

(٤) البحر (٦/ ٣٤٥)، وانظر منهج السالك: ص(٩٤)، والبحر (٨/ ٢٨٢).

(٥) ولم يتحدث فيها عن لعل بشيء انظر البحر (٧/ ٤٦٤).

(٦) انظر البحر (٨/ ٤٢٧).

وقد ردّ هذا المذهب أبو حيان، وجعله من باب حذف النون في حالة الرفع فقال: «والثابت في لسان العرب إن (لِمَ) لا ينجزم ما بعدها، ولم أر أحداً من النحويين ذكر أن (لِمَ) تجري مجرى (لَمْ) في الجزم إلا ما ذكره أهل التفسير هنا، وإنما هذا عندي من باب حذف النون حالة الرفع، وقد جاء ذلك في النثر قليلاً جداً. .»[١].

لَمّا: يختار أبو حيان في «لما» رأي سيبويه، وهو أنها حرف وجوب لوجوب، ويذهب إلى أنه الصحيح، وقد صرّح بذلك في مواضع في البحر.

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] قال أبو حيان: «وجواب (لما) إذا الفجائية وما بعدها، وهذا أحد الدلائل على أنّ (لَمّا) في هذا التركيب حرف لا ظرف»[٢].

لن: ذهب الخليل والكسائي[٣] إلى أنّ أصل (لن): لا أنْ، فحذفت الهمزة تخفيفاً، والألف لالتقاء الساكنين، وذهب الفراء إلى أنّ أصلها «لا» فأبدلت الألف نوناً، أما أبو حيان فقد ذهب[٤] إلى أنها حرف نفي ثنائي الوضع بسيط ، لا مركب من «لاأنْ» خلافاً للخليل، ولا نُونها بدل من ألف، فيكون أصلها «لا» خلافاً للفراء، وذهب الزمخشري إلى أنّ لن تفيد توكيد النفي وتأبيده، وردّ هذا أبو حيان، وجعل النفي فيها كالنفي بلا قال: وهو الصحيح[٥].

---

(١) البحر (٢/ ٤٩٢).

(٢) البحر (٦/ ٣٠٠)، وانظر (٧/ ٢٦٦، ٢١٩ و٢/ ٥١٢، ٣/ ٢٩٧، ١/ ٧٥) والكتاب (٤/ ٢٣٤).

(٣) مغني اللبيب (١/ ٣١٤) وانظر رصف المباني (٢٨٥ ـ ٢٨٦) وفي الكتاب (٤/ ٢٢٠) ومما جاء على حرفين «لن» وفيها بحث مُفَصّل، وط بولاق (١/ ٤٠٧) وانظر المقتضب (٢/ ٧ ـ ٨).

(٤) البحر (١/ ١٠٢).

(٥) انظر البحر (٦/ ٣٩٠)، ومغني اللبيب (١/ ٣١٤)، وانظر الهمع (٢/ ١٣٧).

لكنّ: ذهب البصريون إلى أنها بسيطة، وذهب الفراء إلى أن أصلها (لكن أنْ)، فطرحت الهمزة للتخفيف، ونونُ «لكن» للساكنين، وذهب الكوفيون إلى أنها مركبة من (لا) و(أنّ) و(الكاف) الزائدة لا التشبيه، وحذفت الهمزة تخفيفاً، وقد رد هذا أبو حيان[1]، وقال إنه من غريب ما قيل فيها، وهو قول فاسد، ومذهبه فيه أنها بسيطة لا تركيب فيها.

لكنْ: مذهب الجمهور[2] فيها أنها حرف عطف، وذهب يونس إلى أنها ليست من حروف العطف، وأخذ بهذا أبو حيان فقال: «وهو الصحيح؛ لأنه لا يحفظ ذلك من لسان العرب، بل إذا جاء بعدها ما يوهم العطف كانت مقرونة بالواو...»، فهو يذهب إلى أنّ عمل العطف للواو وليس للأداة لكنْ.

لو: يسميها النحويون[3] «حرف امتناع لامتناع» ورأى هذه التسمية أبو حيان قولاً ضعيفاً لضعفاء المعربين، منهم الزمخشري، وقال[4]: «والذي ذكره سيبويه أنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأول»، وبهذا أخذ أبو حيان، ثم علّق على الرأي الأول بقوله: «ويفسد قول أولئك الضعفاء، قولهم: لو كان إنساناً لكان حيواناً، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية».

مع: ذهب ابن عطية إلى أنّ «مع» ظرف بني على الفتح، وإذا سُكّنت العين فهو حرف جاء لمعنى، ومذهب أبي حيان أنّ «مع» ظرف سُكنت العين أو فُتحت[5].

---

(١) البحر (١/ ٣٢٧)، وانظر مغني اللبيب (١/ ٣٢٣)، والرصف (٢٧٩).

(٢) البحر (٢/ ٣٢٧)، وانظر مغني اللبيب (١/ ٣٢٤)، ورصف المباني (٢٧٤).

(٣) انظر مغني اللبيب (١/ ٢٨٧).

(٤) البحر (٨/ ٢١٢)، وانظر أيضاً (٦/ ٨٤)، والكتاب (٤/ ٢٣٥).

(٥) البحر (٧/ ٨٠) و(٤/ ٤٠٤)، (٢/ ٣٨٨)، وانظر مغني اللبيب (١/ ٣٧٠)، ورصف المباني (٣٢٨ ـ ٣٢٩).

أرأيتم: ذهب أبو حيان إلى أنّ هذا التركيب معناه: «أخبروني»، وهو يطلب مفعولين: أحدهما منصوب، والآخر مشتمل على استفهام، تقول العرب: أرأيت زيداً ما صنع[١]؟

المصدر المبني للمجهول: رأى أبو حيان أنه يبنى من المجهول مصدر[٢].

العطف على التوهم: مذهب أبي حيان أن العطف على التوهم لا ينقاس[٣].

عمل اسم الفاعل: إذا اعتمد اسم الفاعل على نفي أو استفهام جاز أن يعمل في الظاهر بعده، وجاز أن يهمل، فعمله ليس على سبيل الحتم، هكذا تلقى أبو حيان هذه المسألة عن شيوخه لا كما يتوهمه صغار النحويين[٤].

عطف الجمل: يصح عطف الجمل بعضها على بعضها الآخر، وإنْ كانت مختلفة من حيث نوعها، وقد ردد هذا في مواضع من البحر[٥]، وأجازه.

التقديم والتأخير: يرى أبو حيان[٦] أنّ التقديم والتأخير من ضرورات الشعر؛ ولذلك فهو ينزه القرآن عنه.

---

(١) البحر (١/ ١٢٥ ـ ١٢٧)، وانظر أيضاً (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧ و٦/ ٤٦ و٧/ ٣١٧)، وانظر البرهان (٤/ ١٨٧) وبهذا يتضح أن المفعول الأول محذوف.

(٢) البحر (٥/ ٤٦٠) وما بعدها.

(٣) البحر (٣/ ٢٩٩، ٣/ ٤٩٤، ٤/ ٥١٥).

(٤) البحر (٥/ ٤٠٢)، والهمع (٢/ ٩٥) وشرط البصرية لإعماله اعتماده على أداة نفي صريح. . . أو أداة استفهام. . وانظر شرح الكافية (٢/ ٢٠٠).

(٥) البحر (١/ ١٨٠، ٦/ ١٩٥، ٦/ ٤٧٠ ـ ٤٧١، ٨/ ٣٤٢)، انظر مغني اللبيب (٢/ ٥٣٥)، وشرح الكافية (١/ ٣٢٧).

(٦) البحر (٢/ ٣١٣).

الجر على الجوار: هذا عند أبي حيان قليل[1]، وهو شاذ، بل هو في غاية الشذوذ.

زيادة الأسماء وإقحامها: ذهب أبو حيان إلى أنّ الأسماء لا تزاد قال[2]: «وهو المختار عند حذاق النحويين»، وفي موضع آخر قال[3]: (إقحام الأسماء لا يجوز، وحكوا عن الفراء أنّ العرب تقحم كثيراً (المثل)».

* * *

---

(١) البحر (٦/ ٢٦٥، ٨/ ١٧٤)، وفي الهمع (٤/ ٣٠٤) وأنكر الجر بالمجاورة مطلقاً السيرافي وابن جني، وقصره الفراء على السماع، ومنع القياس على ما جاء منه، وأجاز ذلك في المثنى سيبويه والخليل، وقاس أبو حيان عليه الجواز في الجمع، وحجتهم أنّ المانع لم يرد إلا في الإفراد.

(٢) البحر (٢/ ٥٢٢).

(٣) البحر (٥/ ٣٩٦).

من آراء أبي حيان الصرفية

١ ـ العالَمين[١]: ذهب أبو حيان إلى أن «العالمين» جمع عالَم شاذ، وهو اسم جمع، وجمعه بالواو والنون أشذ، وذلك للإخلال ببعض الشروط لهذا الجمع، قال أبو حيان: «والذي أختاره أن ينطلق على المكلفين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وقراءة[٢] حفص بكسر اللام توضح ذلك»، أما ذهاب أبي حيان إلى أنه اسم جمع، فهذا الغالب عند النحويين غير أن هناك من ذهب إلى أنه جمع عالم[٣]، مراداً به العقلاء خاصة، وهذا ما تدل عليه عبارته أيضاً في قوله: «إنه ينطلق على المكلفين»، وهناك من ذهب إلى أنه جمع[٤] مراد به العموم للعقلاء وغيرهم.

---

(١) البحر (١/ ١٩) وذلك في سورة الفاتحة آية/ ٢. وانظر التسهيل (٢٨٢).

(٢) الهمع ط/ عبد العال (١/ ١٥٧)، وفي توضيح المقاصد (١/ ٩٥) رد هذا فقال: «وليس العالمون جمع عالَم لأن العالَم عام والعالِمون خاص بمن يعقل وإنما هو اسم جمع». وانظر شرح الأشموني (١/ ٤٧)، وانظر التصريح (١/ ٧٢)، وانظر شرح التسهيل لابن مالك (١/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٣) قال ابن مالك: (وأما عالمون فاسم جمع مخصص بمن يعقل وليس بجمع عالَم لأن العالم عام والعالمين خاص، وليس ذلك شأن الجموع. . .، وقال بعضهم: العالِمون جمع عالم مراد به ما يعقل، وفعل به ذلك لتقوم جمعيته مقام ذكره موصوفاً بما يدل على عقله، وهذا لا يصح إذ لو جاز في عالم هذا الذي زعم لجاز في غيره من أسماء الأجناس الواقعة على ما لا يعقل وعلى ما يعقل. .).

(٤) الهمع / ط عبد العال (١/ ١٥٧)، وانظر شرح التسهيل (١/ ٨٨) والرد لابن مالك.

هدى: ذكر أبو حيان[1] أنه على وزن فُعَل، كالسُّرَى والبُكى، وزعم بعض أكابر النحاة أنه لم يجىء على فُعَل مصدر سوى هذه الثلاثة، وهذا ليس بصحيح عند أبي حيان، كما نقل عن شيخه الرضي أن العرب قالت: لقيه لُقى، وذكره غيره من اللغويين ذلك.

النساء ـ النسوة: هذا عند أبي حيان[2] جمع تكسير لِنسوة ونُسوة على وزن فِعْلة وهو جمع قلة، وردّ بهذا رأي ابن السراج[3] في أنه اسم جمع لا جمع تكسير.

النصارى[4]: ذهب إلى أنه مفرده نصران ونصرانة مثل ندمان وندمانة، ونقل هذا عن سيبويه، وخالف بذلك الخليل الذي ذهب إلى أن واحده نصري كمهري ومهارى، وبذلك فقد أخذ برأي سيبويه واستضعف رأي الخليل.

تَمَسْكَنَ: نقل عن السابقين أنهم قالوا: تَمَسْكَنَ فلان، اشتقاقاً من الاسم، وذهب إلى أن الأصح في ذلك أن يقال: تَسَكّن أي صار مسكيناً[5].

الليل[6]: نقل عن بعض السابقين، أنهم ذهبوا إلى أن «الليل» اسم جنس مثل تمرة وتمر، وذهب أبو حيان إلى أن الصحيح فيه أنه مفرد، ولا يحفظ جمعاً لليل، وأخطأ من ظن أن الليالي، جمع الليل، بل الليالي جمع ليلة، وذهب أبو حيان إلى أنه جمع غريب.

---

(١) البحر (١/ ٣٣)، وانظر المزهر (٢/ ٦٢)، واللسان (بقي).
(٢) البحر (١/ ١٨٩) و(٥/ ٢٩٩).
(٣) انظر الأصول لابن السراج (٢/ ٤٥٥).
(٤) البحر (١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، وانظر الكتاب (٢/ ٢٩، ١٠٤).
(٥) البحر (١/ ٢٨١)، وانظر رأي الخليل في كتاب سيبويه (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤). واللسان والصحاح / سكن.
(٦) انظر البحر (١/ ٤٥٤)، والصحاح واللسان / ليل.

الفُلْك[١]: ذهب العلماء إلى أنه يكون مفرداً وجمعاً، وزعموا أن حركاته في الجمع ليست حركاته في المفرد، وإذا استعمل مفرداً ثني، وقيل: إذا أريد به الجمع فهو اسم جمع، وذهب أبو حيان إلى أنه لفظ مشترك بين المفرد والجمع، وأنّ حركاته في الجمع حركاته في المفرد هي هي، ولا تقدر بغيرها.

الأرياح[٢]: الرياح جمع ريح، والأصل «رِوْح» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وقد جاءت على الأصل فقالوا أرواح كجمع الرُّوح وقد لحّن ابن عطية عمارة[٣] بن عقيل بن بلال بن جرير في استعماله «الأرياح» في شعره، وقد ردّ أبو حاتم لفظ الأرياح أيضاً، ورآه جمعاً لا أصل له. أما أبو حيان فقد ذكر أن في محفوظه أن «أرياح» جاءت في شعر بعض فصحاء العرب الذين يستشهد بكلامهم، كأنهم بنوه على المفرد وإن كانت علة القلب مفقودة في الجمع كما قالوا عيد وأعياد.

شُهى: الشهوة تجمع بالألف والتاء فيقال شهوات. ووجد أبو حيان في شعر العرب جمعها على شُهًى نحو نزوة ونُزى وكُوَّة وكُوًى على قول من زعم أن كوى جمع كوّة بفتح الكاف، وقرية وقُرى. قال أبو حيان: «واستدركت أنا شُهًى، قالت امرأة من بنت نضر بن معاوية:

فلولا الشهى والله كنت جديرة بأن أترك اللذات في كل مشهد»[٤]

التأكيد والتوكيد: زعم الزجاج أن الهمزة بدل من الواو، وردّ هذا أبو حيان وقال: إنه ليس بجيد، لأن التصريف جاء في التوكيد، وهذا يدل

---

(١) البحر (١/ ٤٥٥)، وانظر اللسان / (فلك).

(٢) البحر (١/ ٤٥٥).

(٣) اللسان / روح. وانظر ديوان عمارة الذي جمعه شاكر العاشور، فليس فيه هذه الرواية، وانظر الخصائص (٣/ ٢٩٥)، ومجالس العلماء (١٩٣).

(٤) البحر (٢/ ٣٩٢)، وانظر الكتاب (٣/ ٥٩٣)، واللسان / شهى. والمزهر (٢/ ٨٥). ولم أعثر على بيت الاستشهاد فيما رجعت إليه من مراجع.

عنده على أنهما أصلان، وقال: «تأكيد وتوكيد» لغتان[١].

القسطاس: ذهب ابن عطية إلى أن اللفظة للمبالغة من القِسط، وردّ هذا أبو حيان[٢]، وذهب إلى أن المادتين مختلفتان، فالقسط مادته «ق س ط . .» والقسطاس مادته «ق س ط س»، ويجوز ذلك إن اعُتقد زيادة السين فيه، غير أنّ هذا ليس من مواضع زيادة السين المقيسة.

لُغُوب[٣]: قرأ الجمهور بضم اللام، وعلي والسلمي وطلحة بفتحها، وهما مصدران، الأول: مقيس عند أبي حيان وغيره وهو الضم، والفتح غير مقيس كالقَبول والوَلوع. قال أبو حيان: «وينبغي أن يضاف إلى تلك الخمسة التي ذكرها سيبويه، وزاد الكسائي الوزوع فتصير سبعة».

شفة: ذكر أن أصلها شفهة حذفت منها الهاء، قال: ويدل على ذلك شفيهة، وشفاه، وشافهته، وأهمل أبو حيان[٤] ذكر الرأي القائل بأن الأصل: شفو.

* * *

---

(١) البحر (٥/ ٥٢٨)، وانظر اللسان / أكد، وكد.

(٢) البحر (٦/ ٣٤)، وانظر الصحاح واللسان / قسط، وقسطس.

(٣) وانظر البحر (٨/ ١٢٩)، والمزهر (٢/ ٧٣).

(٤) البحر (٨/ ٤٧٣)، وانظر اللسان / شفا وشفة.

ومن عمل أبي حيان وآرائه
في القراءات والقراء

١ ـ القراءة عنده سنة مُتَّبعة[١]، شأنه في ذلك شأن كثير من العلماء المتقدِّمين، ولا مجال للاجتهاد فيها، فهي مروية عن النبيّ ﷺ، ولا عمل للقارىء فيها غير النقل والرواية.

٢ ـ رَسْمُ القرآن عنده سُنَّة مُتَّبعة، وما جاء من القراءات مخالفاً لذلك فهو شاذ[٢].

٣ ـ نقل القراءات السبع متواتر[٣] لا يمكن وقوع الغلط فيه، فلا يجوز تلحين المتواترة ولا إنكارها.

٤ ـ لا تعارَضُ القراءة المتواترة بقراءة الآحاد[٤].

٥ ـ لا ترجيح بين القراءتين المتواترتين[٥].

٦ ـ ما خالف السَّواد المجمع عليه من القراءات يكون عنده تفسيراً لا قراءة، وكذلك كل ما جاء زيادة لم تثبت في سواد المصحف، ومن هذا كثير مما جاء عن ابن مسعود من قراءات.

---

(١) انظر البحر ٤/ ١٣٦، ٧/ ٢٦١.
وذكر الزركشي في البرهان ١/ ٣٢١ أنه لم يخرج عن هذا إلا الزمخشري وجماعة، فقد ذهبوا إلى أن القراءات اختيارية تدور مع الفصحاء واجتهاد البلغاء والجمهور على أنها توقيفية، لا اجتهاد فيها.

(٢) البحر ١/ ٣٨٧ وانظر رسم المصحف/ ٦٩.

(٣) البحر ٢/ ٣٢٤.

(٤) البحر ١/ ٦١.

(٥) البحر ٤/ ٨٧.

ففي قوله تعالى[1]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قرأ ابن مسعود «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت».

قال أبو حيان[2]: «وينبغي أن يُجْعَل هذا كُلُّه عن التفسير؛ لأنه مخالف لسواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون».

٧ ـ إذا وردت قراءتان عن قارىء إحداهما شاذّة، والثانية موافقة للنقل الصحيح فإنه[3] لا يذكر الشاذّة.

٨ ـ القلب مخصوص عنده وعند أصحابه بالشعر؛ ولذلك ينبغي أن تُنَزَّه القراءة عنه[4].

٩ ـ أكثر قراءات عبد الله بن مسعود تُنْسَب[5] للشيعة.

١٠ ـ في كثير من الأحيان لا يذكر القراءة[6] المشهورة اعتماداً على شهرتها، وإذا ذكرها فإنه لا يذكر قُرّاءها، بل يقول: قرأ الجمهور، أو قراءة العامة، أو في السبعة.

١١ ـ لا يتعرض للحديث عن ياءات الإضافة، وصورة القراءة بها إلا قليلاً.

ومن آرائه في القُرّاء أنقل إليك هذا النص كما ورد عنده:

فقد وردت قراءة «لَيْلَة» وهي قراءة ابن كثير ونافع وغيره، وطعن في هذه القراءة المبرد وابن قتيبة والزجاج والفارسي والنحاس، وتبعهم الزمخشري ووهموا هؤلاء القراء.

---

(١) سورة البقرة ٢/ ١٩٦.
(٢) البحر ٢/ ٧٢.
(٣) البحر ٧/ ١٤٨.
(٤) البحر ٤/ ٣٥٥.
(٥) البحر ١/ ٦١. ولم أجد دليلاً على ما ذهب إليه أبو حيان. وقد مضى من الوقت خمسة وعشرون عاماً وأنا أعمل في القراءات، فما ذهب إليه غير صحيح. وأكثر المتقدمين اهتماماً بقراءة ابن مسعود هو أبو زكريا الفراء في كتابه «معاني القرآن».
(٦) سورة الشعراء / ١٧٦.

قال أبو حيان[1]: «... وهذه قراءة متواترة لا يمكن الطعن فيها، ويقرب إنكارها من الردة والعياذ بالله.

أما نافع فقرأ على سبعين من التابعين، وهم عرب فصحاء، ثم هي قراءة أهل المدينة قاطبة.

وأما ابن كثير فقرأ على سادة التابعين ممن كان بمكة كمجاهد وغيره، وقد قرأ عليه إمام أهل البصرة أبو عمرو بن العلاء، وسأله بعض العلماء: «أقرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعدما ختمت على مجاهد» وكان ابن كثير أعلم من مجاهد باللغة...

وأما ابن عامر فهو إمام أهل الشام، وهو عربي قُحّ، قد سبق اللحن، أخذ عن عثمان وعن أبي الدرداء، وغيرهما..».

* * *

(١) البحر ٧/ ٣٧.

دراسة نص من البحر المحيط

سورة أم القرآن

قال أبو حيان:

«﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ باء الجرتأتى لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل، فالإلصاق حقيقةً: مسحت برأسي، ومجازاً: مررت بزيدٍ، والاستعانة: ذبحت بالسكين، والسبب ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا﴾ والقسم: بالله لقد قام، والحال: جاء زيد بثيابه، والظرفية: زيد بالبصرة، والنقل: قمت بزيدٍ، وتأتي زائدة للتوكيد: «شربن بماء البحر»، والبدل: «فليت لي بهم قوماً»، أي: بدلهم، والمقابلة: اشتريت الفرس بألف، والمجاوزة: تشقق السماء بالغمام، أي: عن الغمام، والاستعلاء: ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾، وكَنَّى بعضهم عن الحال بالمصاحبة، وزاد فيها كونها للتعليل، وكَنَّى عن الاستعانة بالسبب، وعن الحال بمعنى مع، بموافقة معنى اللام.

* * *

ويقال: إِسم بكسر همزة الوصل وضمها، وسِم بكسر السين وضَمِّها، وسُمَى كهُدَى، والبصري يقول: مادته سين، وميم، وواو، والكوفي يقول: واو، وسين، وميم، والأرجح الأول، والاستدلال في كتب النحو.

أل للعهد في شخص، أو جنس، وللحضور، وللمح الصفة، وللغلبة، وموصولة، فللعهد في شخص: جاء الغلام، وفي جنس: اسقني الماء، وللحضور: خرجت فإذا الأسدُ، وللمح: الحارث، وللغلبة: الدبران، وزائدة لازمة وغير لازمة، فاللازمة: كالآن، وغير اللازمة «باعد أم العمر من أسيرها» وهل هي مركبة من حرفين أم هي حرف واحد؟ وإذا كانت من حرفين فهل الهمزة زائدة أم لا؟ مذاهب.

والله: علم لا يطلق إلا على المعبود بحقّ، مرتجل غير مشتق عند الأكثرين، وقيل: مشتق؛ ومادته قيل: لام وياء وهاء، من لاه يليه: ارتفع، قيل: ولذلك سميت الشمس: إلاهه بكسر الهمزة، وفتحها، وقيل: لام، وواو، وهاء؛ من لاه يلوه لوهاً: احتجب، أو استنار [كذا]، ووزنه إذ ذاك فعَل، أو فعِل، وقيل: الألف زائدة، ومادته: همزة، ولام من أله أي: فزع، قاله ابن إسحاق، أوأله تحير، قاله أبو عمر، وأله: عبد، قاله النضر، أوأله: سكن، قاله المبرد، وعلى هذه الأقاويل، فحذفت الهمزة اعتباطاً كما قيل في ناس: أصله أناس، أو حذفت للنقل، ولزم مع [الحذف] الإدغام، وكلا القولين شاذ، وقيل: مادته، واو، ولام، وهاء من وله أي: طرب، وأبدلت الهمزة فيه من الواو نحو: إشاح، قاله الخليل والقناد [كذا]، وهو ضعيف للزوم البدل، وقولهم في الجمع آلهة، وتكون فِعالاً بمعنى مفعول كالكتاب يراد به المكتوب، وأل في الله: إذا قلنا أصله الإلاه قالوا: للغلبة إذ الإله ينطلق على المعبود بحق وباطل، والله لا ينطلق إلا على المعبود بالحق؛ فصار كالنجم للثريا.

وأورد عليه بأنه ليس كالنجم؛ لأنه بعد الحذف والنقل، أو الإدغام لم يطلق على كل إله، ثم غلب على المعبود بحق، ووزنه على أن أصله

فِعال، فحذفت همزته عال [كذا]، وإذا قلنا بالأقاويل السابقة فَأَل فيه زائدة لازمة، وشذ حذفها في قولهم: لاه أبوك شذوذَ حذف الألف في أقبل سيل أقبل جاء من عند الله، وزعم بعضهم: أن أل في الله من نفس الكلمة ووصلت الهمزة لكثرة الاستعمال، وهو اختيار أبي بكر بن العربي، والسهيلي، وهو خطأ؛ لأن وزنه إذ ذاك يكون فعالاً، وامتناع تنوينه لا موجب له، فدل على أن أل حرف داخل على الكلمة سقط لأجلها التنوين، وينفرد هذا الاسم بأحكام ذكرت في علم النحو، ومن غريب ما قيل: أن أصله لاها بالسريانية فَعُرِّبَ قال:

كحلفة من أبي رياح يسمعها لاهه الكبار

قال أبو يزيد البلخي: هو أعجمي؛ فإن اليهود والنصارى يقولون لاها، وأخذت العرب هذه اللفظة وغيروها فقالوا: الله.

ومن غريب ما قيل في الله: أنه صفة وليس اسم ذات؛ لأن اسم الذات يعرف به المسمى، والله تعالى لا يدرك حساً ولا بديهةً، ولا تعرف ذاته باسمه بل إنما يعرف بصفاته، فجعله اسماً للذات لا فائدة في ذلك، وكان العَلَمُ قائماً مقام الإشارة، وهي ممتنعة في حق الله تعالى، وحذفت الألف الأخيرة من الله لئلا يشكل بخط اللاهِ اسم الفاعل من لها يلهو، وقيل: طرحت تخفيفاً، وقيل: هي لغة فاستعملت في الخط.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فعلان من الرحمة، وأصل بنائه من اللازم من المبالغة، وشذ من المتعدي، وأل فيه للغلبة كهي في الصعق، فهو وصف لم يستعمل في غير الله كما لم يستعمل اسمه في غيره، وسمعنا مناقبه، قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ووَصْفُ غير الله به من تعنُّت الملحدين، وإذا قلت: الله رحمن ففي صرفه قولان ليسند أحدهما إلى أصل عام، وهو أن أصل الاسم الصرف، والآخر إلى أصل خاص، وهو أن أصل فعلان المنع لغلبته فيه.

ومن غريب ما قيل فيه: إنه أعجمي بالخاء المعجمة فعرب بالحاء، قاله ثعلب.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فعيل محول من فاعل للمبالغة، وهو أحد الأمثلة الخمسة وهي: فعّال، وفعول، ومفعال، وفعيل، وفَعِل، وزاد بعضهم: فِعِّيلاً، فيها نحو سِكِّير، ولها باب معقود في النحو، قيل: وجاء رحيم بمعنى مرحوم، قال العملس بن عقيل:

فأما إذا عضت بك الأرض عضة فـإنـك معطـوف عليـك رحيـم

قال علي، وابن عباس، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، وعطاء، وابن جبير، ومحمد بن يحيى بن حبان، وجعفر الصادق: الفاتحة مكية، ويؤيده ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، والحِجر مكية بإجماع، وفي حديث أُبَيّ: إنها السبع المثاني، والسبع الطوال، أنزلت بعد الحِجر بمدد، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة وما حفظ أنه كانت في الإسلام صلاة بغير الحمد لله رب العالمين.

وقال أبو هريرة، وعطاء بن يسار، ومجاهد، وسواد بن زياد، والزهري، وعبد الله بن عبيد بن عمير: هي مدنية، وقيل: إنها مكية مدنية.

الباء في بسم الله للاستعانة نحو: كتبت بالقلم، وموضعها نصب أي: بدأت وهو قول الكوفيين، وكذا كل فاعل بدىء في فعله بالتسمية كان مضمراً لا بَدَأَ، وقدره الزمخشري فعلاً غير بدأت، وجعله متأخراً قال: تقديره بسم الله أقرأ أو أتلو إذ الذي يجيء بعد التسمية مقروء، والتقديم على العامل عنده يوجب الاختصاص، وليس كما زعم، وقال سيبويه: وقد تكلم على ضربت زيداً ما نصه، وإذا قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك يعني تأخيره عربياً جيداً، وذلك قولك: زيداً ضربت، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء مثله: في ضرب زيد عمراً، وضرب زيداً عمرو، انتهى وقيل: موضع اسم رفع التقدير: ابتدائي ثابت، أو مستقر باسم الله، وهو قول البصريين، وأيّ التقديرين أرجح، يرجح الأول لأن الأصل في العمل للفعل، أو الثاني لبقاء أحد جزأي الإسناد.

والاسم: هواللفظ الدال بالوضع على موجود في العيان إن كان

محسوساً، وفي الأذهان إن كان معقولاً من غير تعرض ببنيته للزمان ومدلوله هو المسمى، ولذلك قال سيبويه فالكل اسم وفعل وحرف، والتسمية جعل ذلك اللفظ دليلاً على ذلك المعنى، فقد اتضحت المباينة بين الاسم والمسمى والتسمية؛ فإذا أسندت حكماً إلى اسم فتارة يكون إسناده إليه حقيقة نحو: زيد اسم ابنك، وتارة لا يصح الإسناد إليه إلا مجازاً، وهو أن تطلق الاسم وتريد به مدلوله وهو المسمى، نحو قوله تعالى: ﴿تبارك اسم ربك﴾ و﴿سبح اسم ربك﴾ ﴿وما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾، والعجب من اختلاف الناس هل الاسم هو عين المسمى أو غيره، وقد صنف في ذلك الغزالي، وابن السيِّد، والسهيلي وغيرهم، وذكروا احتجاج كل من القولين، وأطالوا في ذلك، وقد تأوّل السهيلي رحمه الله قوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك﴾ بأنه أقحم الاسم تنبيهاً على أن المعنى سبح ربك، واذكر ربك بقلبك ولسانك حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن الذكر بالقلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم، والذكر باللسان متعلقة اللفظ، وقوله تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ بأنها أسماء كاذبة غير واقعة على حقيقة، فكأنهم لم يعبدوا إلا الأسماء التي اخترعوها، وهذا من المجاز البديع، وحذفت الألف من بسم هنا في الخط لكثرة الاستعمال، فلو كتبت باسم القاهر أو باسم القادر، فقال الكسائي والأخفش تحذف الألف، وقال الفراء: لا تحذف إلا مع بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأن الاستعمال إنما كثر فيه، فأما في غيره من أسماء الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف.

والرحمن: صفة لله عند الجماعة، وذهب الأعلم وغيره إلى أنه بدل، وزعم أن الرحمن عَلَم، وإن كان مشتقاً من الرحمة لكنه ليس بمنزلة الرحيم ولا الراحم، بل هو مثل الدبران وإن كان مشتقاً من دَبَر صيغ للعلمية فجاء على بناء لا يكون في النعوت، قال: ويدل على علميته؛ وروده غير تابع لاسم قبله، قال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ﴿الرحمن علم القرآن﴾، وإذا أثبتت العَلَمية امتنع النعت فتعين البدل.

قال أبو زيد السهيلي البدل فيه عندي ممتنع، وكذلك عطف البيان؛ لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين؛ لأنه أعرف الأعلام كلها وأبينها، ألا تراهم قالوا: «وما الرحمن»، ولم يقولوا وما الله، فهو وصف يراد به الثناء، وإن كان يجري مجرى الأعلام.

الرحمن الرحيم قيل: دلالتهما واحد نحو ندمان ونديم، وقيل: معناهما مختلف فالرحمن أكثر مبالغة.

وكان القياس الترقي كما تقول: عالم نحرير، وشجاع باسل، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم ليكون كالتتمة، والرديف ليتناول ما دق منها ولطف، واختاره الزمخشري، وقيل: الرحيم أكثر مبالغة، والذي يظهر أن جهة المبالغة مختلفة، فلذلك جمع بينهما، فلا يكون من باب التوكيد، فمبالغة فعلان مثل غضبان وسكران من حيث الامتلاء والغلبة، ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة، ولذلك لا يتعدى فَعْلان، ويتعدى فعيل تقول: زيد رحيمُ المساكينِ، كما تعدّي فاعلاً قالوا: زيد حفيظ علمك وعلم غيرك، حكاه ابن سِيده عن العرب، ومن رأى أنهما بمعنى واحد ولم يذهب إلى توكيد أحدهما بالآخر احتاج أنه يخص كل واحد بشيء وإن كان أصل الموضوع عنده واحداً؛ ليخرج بذلك عن التأكيد، فقال مجاهد: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وروى ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «الرحمن رحمن الدنيا، والرحيم رحيم الآخرة»، وإذا صح هذا التفسير وجب المصير إليه، وقال القرطبي: رحمن الآخرة، ورحيم الدنيا، وقال الضحاك: لأهل السماء والأرض، وقال عكرمة: برحمة واحدة وبمئة رحمة، وقال المزني بنعمة الدنيا والدين، وقال العزيزي: الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم، واللطف بهم. وقال المحاسبي: برحمة النفوس، ورحمة القلوب. وقال يحيى بن معاذ: لمصالح المعاد والمعاش، وقال الصادق: خاص اللفظ بصيغة عامة في الرزق، وعام اللفظ بصيغة خاصة في مغفرة

المؤمن، وقال ثعلب: الرحمن أمدح، والرحيم ألطف، وقيل: الرحمن المنعم، بما لا يتصور جنسه من العباد، والرحيم المنعم بما يتصور جنسه من العباد، وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿كان بالمؤمنين رحيماً﴾ ووَصْفُ الله تعالى بالرحمة مجاز عن إنعامه على عباده، ألا ترى أن الملك إذا عطف على رعيته ورَقَّ لهم أصابهم إحسانه، فتكون الرحمة إذ ذاك صفة فعل.

وقال قوم: هي إرادة الخير لمن أراد الله تعالى به ذلك، فتكون على هذا صفة ذات، وينبني على هذا الخلاف خلاف آخر، وهو أن صفات الله تعالى الذاتية والفعلية أهي قديمة أم صفات الذات قديمة وصفات الفعل محدثة؟ قولان، وأما الرحمة التي من العباد فقيل هي رقة تحدث في القلب، وقيل: هي قصد الخير أو دفع الشر؛ لأن الإنسان قد يدفع الشر عمن لا يرق عليه، ويوصل الخير إلى من لا يرق عليه.

وفي البسملة من ضروب البلاغة نوعان: (أحدهما): الحذف، وهو ما يتعلق به الباء في بسم، وقد مر ذكره، والحذف قيل: لتخفيف اللفظ، كقولهم (بالرفاء والبنين) باليمن والبركة، «فقلت: إلى الطعام»، وقوله تعالى ﴿في تسع آيات﴾ أي: أعرست، وهلموا، واذهب، قال أبو القاسم السهيلي: وليس كما زعموا إذ لو كان كذلك كان إظهاره وإضماره في كل ما يحذف تخفيفاً، ولكن في حذفه فائدة، وذلك أنه موطن ينبغي ألا يقدم سوى ذكر الله تعالى، فلو ذكر الفعل، وهو لا يستغني عن فاعله لم يكن ذكر الله مقدماً، وكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، كما تقول في الصلاة: الله أكبر، ومعناه: من كل شيء ولكن يحذف ليكون اللفظ في اللسان مطابقاً لمقصود القلب وهو أن لا يكون في القلب ذكر إلا لله عز وجل، ومن الحذف أيضاً حذف الألف في بسم الله، وفي الرحمن في الخط، وذلك لكثرة الاستعمال (النوع الثاني): التكرار في الوصف، ويكون إما لتعظيم الموصوف، أو للتأكيد ليتقرر في النفس، وقد تعرض

المفسرون في كتبهم لحكم التسمية في الصلاة، وذكروا اختلاف العلماء في ذلك، وأطالوا التفاريع في ذلك، وكذلك فعلوا في غير ما آية، وموضوع هذا كتب الفقه، وكذلك تكلم بعضهم على التعوُّذ وعلى حكمه، وليس من القرآن بإجماع، ونحن في كتابنا هذا لا نتعرض لحكم شرعي إلا إذا كان لفظ القرآن يدل على ذلك الحكم، أو يمكن استنباطه منه بوجه من وجوه الاستنباطات.

واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فقرأ قوم من الكوفيين بسكون الميم ويقفون عليها، ويبتدئون بهمزة مقطوعة، والجمهور على جر الميم ووصل الألف من الحمد، وحكى الكسائي عن بعض العرب أنه يقرأ الرحيمَ ألحمد بفتح الميم وصلة الألف، كأنك سكنت الميم، وقطعت الألف، ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت، ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد.

٢ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الثناء على الجميل من نعمة، أو غيرها باللسان وحده ونقيضه الذم، وليس مقلوب مدح خلافاً لابن الأنباري؛ إذ هما في التصريفات متساويان، وإذ قد يتعلق المدح بالجماد فتمدح جوهرة ولا يقال تحمد، والحمد والشكر بمعنى واحد، والحمد أعم، والشكر ثناء على الله تعالى بأفعاله، والحمد ثناء بأوصافه ثلاثة أقوال، أصحها أنه أعم، فالحامد قسمان: شاكر، ومُثْنٍ بالصفات.

﴿لِلَّهِ﴾ اللام للملك وشبهه، وللتمليك وشبهه، وللاستحقاق، والنسب، وللتعليل، وللتبليغ، وللتعجب، وللتبيين، وللصيرورة، وللظرفية بمعنى في، أو عند، أو بعد، وللانتهاء، وللاستعلاء، مثل ذلك: المال لزيد. أدوم لك ما تدوم لي، ووهبت لك ديناراً ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ الجلباب للجارية، لزيد عَمّ، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، قلت لك. و«لله عيناً» من رأى من تفوق ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ﴿ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كتب لخمس خلون، ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الرب والسيد، والمالك، والثابت، والمعبود، والمصلح، وزاد بعضهم: بمعنى الصاحب مستدلاً بقوله:

فـدنـا لـه ربُّ الكـلاب بكفِّـه   بيـضٌ رهـافٌ ريشهـن مقـزع

وبعضهم: بمعنى الخالق، العالَم لا مفرد له، كالأنام، واشتقاقه من العَلَم، أو العلامة، ومدلوله: كل ذي روح قاله ابن عباس، أو الناس قاله البجلي، أو الإنس والجن والملائكة، قال أيضاً ابن عباس، أو الإنس والجن والملائكة، والشياطين قاله أبو عبيدة والفراء، أو الثقلان قاله ابن عطية، أو بنو آدم قاله أبو معاذ، أو أهل الجنة والنار قاله الصادق، أو المرتزقون قاله عبد الرحمن بن زيد، أو كل مصنوع قاله الحسن وقتادة، أو الروحانيون قاله بعضهم، ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالَمين، وفي مقارها الله أعلم بالصحيح.

والجمهور قرؤوا بضم دال «الحمد»، وأتبع إبراهيم بن أبي عبلة معه لام الجر لضمة الدال، كما أتبع الحسن زيد بن علي كسرة الدال لكسرة اللام، وهي أغرب؛ لأن فيه إتباع حركة مُعْرَب لحركة غير إعراب، والأول بالعكس، وفي قراءة الحسن احتمال أن يكون الإتباع في مرفوع أو منصوب، ويكون الإعراب إذ ذاك على التقديرين مقدراً منع من ظهوره شغل الكلمة بحركة الإتباع، كما في المحكي، والمدغم، وقرأ هارون العتكي، ورؤبة، وسفيان بن عيينة «الحمدَ» بالنصب.

والحمد مصدر معرف بأل إما للعهد، أي: الحمد المعروف بينهم لله، أو لتعريف الماهية، كالدينار خير من الدرهم، أيْ: أيُّ دينار كان فهو خير من أيِّ درهم كان، فيستلزم إذ ذاك الأحمدة كلها، أو لتعريف الجنس، فيدل على استغراق الأحمدة كلها بالمطابقة، والأصل في الحمد لا يجمع، لأنه مصدر، وحكى ابن الأعرابي جمعه على أحْمُد، كأنه راعى فيه جامعه اختلاف الأنواع قال:

وأبلـج محمـود الثنـاء خصصتـه   بأفضل أقوالي وأفضل أَحْمُدي

وقراءة الرفع أمكن في المعنى، ولهذا أجمع عليها السبعة لأنها تدل على

ثبوت الحمد، واستقراره لله تعالى، فيكون قد أخبر بأنَّ الحمد مستقر لله تعالى، أي: حمده وحمد غيره.

ومعنى اللام في «لله» الاستحقاق، ومَنْ نصب فلا بد من عامل تقديره: أحمد الله، أو حمدت الله، فيخصص الحمد بتخصيص فاعله، وأشعر بالتجدد والحدوث، ويكون في حالة النصب من المصادر التي حذفت أفعالها، وأقيمت مقامها، وذلك في الأخبار نحو: شكراً لا كفراً، وقدَّر بعضهم العامل للنصب فعلاً غير مشتق من الحمد، أي: أقول الحمد الله، أو ألزموا الحمدَ لله كما حذفوه نحو: اللهم ضبعاً وذئباً، والأول هو الصحيح لدلالة اللفظ عليه، وفي قراءة النصب: اللام للتبيين، كما قال أعني لله، ولا تكون مقوية للتعدية، فيكون لله في موضع نصب بالمصدر لامتناع عمله فيه قالوا: سقياً لزيدٍ، ولم يقولوا سقياً زيداً، فيعملونه فيه فدل على أنه ليس من معمول المصدر، بل صار على عامل آخر.

وقرأ زيد بن علي وطائفة ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنصب على المدح، وهي فصيحة لولا خفض الصفات بعدها، وضعفت إذ ذاك، على أن الأهوازي حكى في قراءة زيد بن علي أنه قرأ «ربَّ العالمين الرحمنَ الرحيمَ» بنصب الثلاثة، فلا ضعف إذ ذاك، وإنما تضعف قراءة نصب «رَبّ» وخفض الصفات بعدها؛ لأنهم نصوا: أنه لا إتباع بعد القطع في النعوت، لكن تخريجها على أن يكون «الرحمن» بدلاً، ولا سيما على مذهب الأعلم؛ إذ لا يجيز في الرحمن أن يكون صفة، وحسن ذلك على مذهب غيره كونه وصفاً خاصاً، وكون البدل على نية تكرار العامل، فكأنه مستأنف من جملة أخرى، فَحَسُنَ النصبُ، وقول من زعم أنه نصب «ربَّ» بفعل دلَّ عليه الكلام قبله، كأنه قيل: نحمد الله رَبَّ العالمين، ضعيف؛ لأنه مراعاة التوهم، وهو من خصائص العطف، ولا ينقاس فيه، ومن زعم أنه نصبه على البدل فضعيف للفصل بقوله: (الرحمن الرحيم) ورَبّ: مصدر وصف به على أحد وجوه الوصف بالمصدر، أو اسم فاعل حذفت ألفه فأصله رابّ، كما قالوا: رجل بارّ وبَرّ، وأطلقوا الربّ على الله وحده، وفي غيره

قيد بالإضافة نحو رَبّ الدار، وأل في العالمين للاستغراق، وجمع العالَم شاذ، لأنه اسم جمع، وجمعه بالواو والنون أشذ للإخلال ببعض الشروط التي لهذا الجمع، والذي أختاره أنه ينطلق على المكلفين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾، وقراءة حفص بكسر اللام توضح ذلك.

٣ - ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام عليهما في البسملة، وهما مع قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفات مدح؛ لأن ما قبلهما علم لم يعرض في التسمية به اشتراك فيخصص، وبدأ أولاً بالوصف بالربوبية، فإن كان الرب بمعنى السيد، أو بمعنى المالك، أو بمعنى المعبود كان صفة فعل للموصوف بها التصريف في المسوّد، والمملوك، والعابد بما أراد من الخير والشر، فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية لينبسط أمل العبد في العفو إن زَلَّ، ويقوى رجاؤه إن هفا، ولا يصح أن يكون الرب بمعنى الثابت، ولا بمعنى الصاحب لامتناع إضافته إلى العالمين، وإن كان بمعنى المصلح، كان الوصف بالرحمة مشعراً بقلة الإصلاح، لأن الحامل للشخص على إصلاح حال الشخص رحمته له، ومضمون الجملة والوصف: أنَّ من كان موصوفاً بالربوبية والرحمة للمربوبين كان مستحقاً للحمد.

وخفض «الرحمن الرحيم»: الجمهور، ونصبهما أبو العالية وابن السميفع، وعيسى بن عمر، ورفعهما أبو رزين العقيلي، والربيع بن خثيم، وأبو عمران الجوني، فالخفض على النعت، وقيل: في الخفض: إنه بدل أو عطف بيان، وتقدم شيء من هذا النصب والرفع للقطع، وفي تكرار الرحمن الرحيم، إن كانت التسمية آية من الفاتحة، تنبيه على عظم قدر هاتين الصفتين، وتأكيد أمرهما، وجعل مكي تكرارها دليلاً على أنَّ التسمية ليست بآية من الفاتحة، قال: إذ لو كانت آية لكنا قد أتينا بآيتين متجاورتين بمعنى واحد، وهذا لا يوجد إلاَّ بفواصل تفصل بين الأولى والثانية، قال: والفصل بينهما بالحمد لله رب العالمين، كَلاَ فصلٍ، قال: لأنَّه مؤخَّر يراد به التقديم، تقديره: الحمد لله الرحمن الرحيم رَبّ

العالمين، وإنما قلنا بالتقديم؛ لأن مجاورة الرحمة بالحمد أولى، ومجاروة الملك بالملك أولى، قال: والتقديم والتأخير كثير في القرآن. وكلام مكي مدخول من غير وجه، ولولا جلالة قائله نزهت كتابي هذا عن ذكره. والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة؛ لأنه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية، وصفة الرحمة، ثم ذكر شيئين: أحدهما ملكه يوم الجزاء والثاني: العبادة، فناسب الربوبية للملك، والرحمة بالعباد فكان الأول للأول والثاني للثاني.

وقد ذكر المفسرون في علم التفسير الوقف، وقد اختلف في أقسامه، فقيل: تام، وكاف، وقبيح، وغير ذلك، وقد صنَّف الناس في ذلك كتباً مرتبة على السور، ككتاب أبي عمرو الداني، وكتاب الكرماني وغيرهما، ومن كان عنده حظ في علم العربية استغنى عن ذلك.

٤ - ﴿مَـٰلِكِ﴾ قرأ (مالك) على وزن فاعل بالخفض: عاصم، والكسائي، وخلف في اختياره، ويعقوب، وهي قراءة العشرة إلاّ طلحة، والزبير، وقراءة كثير من الصحابة منهم: أُبَيّ وابن مسعود، ومعاذ، وابن عباس، والتابعين منهم: قتادة، والأعمش، وقرأ (مَلِك) على وزن فعل بالخفض باقي السبعة، وزيد، وأبو الدرداء، وابن عمر، والمسور، وكثير من الصحابة والتابعين، وقرأ (مَلْك) على وزن سهْل أبو هريرة، وعاصم الجحدرني، ورواها الجعفي، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وهي لغة بكر بن وائل، وقرأ (ملكي) بإشباع كسرة الكاف: أحمد بن صالح عن روش عن نافع، وقرأ (مِلْك) على وزن عِجْل: أبو عثمان النهدي، والشعبي، وعطية، ونسبها ابن عطية إلى أبي حياة.

وقال صاحب اللوامح: قرأ أنس بن مالك، وأبو نوفل عمر بن مسلم بن أبي عدي، (ملكَ يوم الدين) بنصب الكاف من غير ألف، وجاء كذلك عن أبي حياة انتهى، وقرأ كذلك إلاَّ إنه رفع الكاف سعد بن وقاص، وعائشة ومورق العجلي، وقرأ (مَلَكَ) فعلاً ماضياً، أبو حياة، وأبو حنيفة. وجبير بن مطعم، وأبو عاصم عبيد بن عمير الليثي، وأبو المحشر

عاصم بن ميمون الجحدري، فينصبون اليوم.

وذكر ابن عطية أنَّ هذه قراءة يحيى بن يعمر، والحسن، وعلي بن أبي طالب، وقرأ (مالكَ) بنصب الكاف: الأعمش، وابن السميفع، وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الملك قاضي الهند.

وذكر ابن عطية أنها قراءة عمر بن عبد العزيز. وأبي صالح السمان، وأبي عبد الملك الشامي، وروى ابن أبي عاصم عن اليمان: ملكاً بالنصب والتنوين، وقرأ (مالكٌ) برفع الكاف والتنوين، عون العقيلي، ورويت عن خلف بن هشام، وأبي عبيد وأبي حاتم وبنصب اليوم، وقرأ (ملكُ يومِ) بالرفع والإضافة أبو هريرة وأبو حياة، وعمر بن عبد العزيز بخلاف عنه، ونسبها صاحب اللوامح إلى أبي رَوْح عون بن أبي شداد العقيلي ساكن البصرة، وقرأ (مليك) على وزن فعيل أُبَيّ، وأبو هريرة، وأبو رجاء العطاردي، وقرأ (مالِك) بالإمالة البليغة يحيى بن يعمر، وأيوب السختياني، وبَيْن بَيْنَ قتيبة بن مهران عن الكسائي، وجهل النقل، أعني في قراءة الإمالة، أبو علي الفارسي، فقال: لم يمل أحد من القراء ألف مالك، وذلك جائز إلاَّ أنه لا يقرأ بما يجوز إلاَّ أن يأتي بذلك أثر مستفيض، وذكر أيضاً أنه قرىء في الشاذ (مَلاَّك) بالألف والتشديد للام وكسر الكاف، فهذه ثلاث عشرة قراءة، بعضها راجع إلى المِلك وبعضها إلى المُلك، قال اللغويون وهما راجعان إلى المَلْك، وهو الربط، ومنه: مَلَكَ العجين، وقال قيس بن الخطيم يصف طعنة:

ملكت بها كَفّي فانهرتُ فتقها   يرى قائماً من دونها ما وراءها

والإملاك: التزويج وعقد النكاح، ومن مُلَح هذه المادة أن جميع تقاليبها الستة مستعملة في اللسان، وكلها راجع إلى معنى القوة والشد، فبينها كلها قدر مشترك، وهذا يسمى بالاشتقاق الأكبر، ولم يذهب إليه غير أبي الفتح، وكان أبو علي الفارسي يأنس به في بعض المواضع، وتلك

التقاليب[١]: ملك، مكل، لمك، لكم، كمل، كلم، وزعم الفخر الرازي أن تقليب لمك مهمل، وليس بصحيح بل هو مستعمل بدليل ما أنشد الفراء من قول الشاعر يصف بعيره[٢]:

فلما رآني قد حممت ارتحاله　　تلمك لو يجدي عليه التلمُّكُ

والمُلْك: هو القهر والتسليط على من تتأتى منه الطاعة، ويكون ذلك باستحقاق، وبغير استحقاق، والمِلْك: هو القهر على من تتأتى منه الطاعة ومن لا تتأتى منه، ويكون ذلك منه باستحقاقه فبينهما عموم وخصوص من وجه، وقال الأخفش: يقال: ملك من الملك بضم الميم، ومالك من الملك بكسر الميم، وفتحها. وزعموا: أن ضم الميم لغة في هذه المعنى، وروي عن بعض البغداديين: لي في هذا الوادي مِلك ومُلك بمعنى واحد.

﴿يَوۡمِ﴾: اليوم هو المدة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويطلق على مطلق الوقت، وتركيبه غريب، أعني: وجود مادة تكون فاء الكلمة فيها ياء وعينها واواً لم يأت من ذلك سوى يوم وتصاريفه، ويوح اسم للشمس، وبعضهم زعم: أنه بوح بالباء والمعجمة بواحدة من أسفل.

﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء دِنّاهم كما دانوا، قاله قتادة، والحساب ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ قاله ابن عباس والقضاء ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، والطاعة في دَيْن عمرو (وحالت بيننا وبينك فدك) قاله أبو الفضل، والعادة:

كدينك من أم الحويرث قبلها　　... ... ...

وكنى بها هنا عن العمل قاله الفراء، والملة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، والقهر، ومنه: المدين للعبد، والمدينة للأمة قاله يمان بن رئاب، وقال أبو عمرو الزاهد: وإن أطاع وعصى، وذل وعز، وقهر وجار، وملك، وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دَيْناً ودِيناً بفتح

---

(١) وردت هذه الألفاظ في المطبوع محرفة، والصواب ما أثبته.

(٢) ورد في المطبوع: تملك، والتملك، وما أثبته من اللسان: لمك وحمم.

الدال وكسرها: جازيته. وقيل: الدَّين والمصدر، والدِّين بالكسر: الاسم، والدِّين: السياسة ، والدَّيّان: السايس، قال ذو الأصبع عنه:

«ولا أنت دياني فتخزوني» والدين: الحال. قال النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال لو لقيتني على دين غير هذا لأخبرتك، والدين: الداء عن اللحياني، وأنشد:

يا دين قلبك من سلمى وقد دِينا

ومن قرأ بجر الكاف فعلى معنى الصفة، فإن كان بلفظ: مَلِك على فعل بكسر العين أو إسكانها، أو مليك بمعناه فظاهر؛ لأنه وصف معرفة بمعرفة، وإن كان بلفظ مالك أو ملاك أو مليك محولين من مالك للمبالغة بالمعرفة، ويدل عليه قراءة من قرأ ملك يوم الدين فعلاً ماضياً، وإن كان بمعنى الاستقبال وهو الظاهر، لأن اليوم لم يوجد فهو مشكل؛ لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فإنه تكون إضافته غير محضة، فلا يتعرف بالإضافة وإن أضيف إلى معرفة، فلا يكون إذ ذاك صفة لأنَّ المعرفة لا توصف بالنكرة، ولا بدل نكرة من معرفة؛ لأنَّ البدل بالصفات ضعيف (وحَلُّ هذا الإشكال) هو أن اسم الفاعل إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال جاز فيه وجهان أحدهما: ماقدمناه من أنه لا يتعرف بما أضيف إليه؛ إذ يكون منوياً في الانفصال من الإضافة، ولأنه عمل النصب لفظاً، والثاني: أن يتعرف به إذا كان معرفة فليحظ فيه أن الموصوف صار معروفاً بهذا الوصف، وكان تقييده بالزمان غير معتبر، وهذا الوجه غريب النقل لا يعرفه إلاَّ من له اطلاع على كتاب سيبويه وتنقيب عن لطائفه، قال سيبويه رحمه الله تعالى: وزعم يونس والخليل أنَّ الصفات المضافة التي صارت صفة للنكرة قد يجوز فيهن كلهن أن يكُنَّ معرفة، وذلك معروف في كلام العرب انتهى، واستثنى من ذلك باب الصفة المشبهة فقط، فإنه لا يتعرف بالإضافة نحو حَسَنُ الوجهِ، ومن رفع الكاف ونون أو لم ينون فعلى القطع إلى الرفع، ومن نصب فعلى القطع إلى النصب أو على النداء، والقطع أقرب لتناسق الصفات، إذ لم يخرج بالقطع عنها، ومن قرأ ملك

فعلاً ماضياً فجملة خبرية لا موضع لها من الإعراب، ومن أشبع كسرة الكاف فقد قرأ بنادر، أو بما ذكر أنه لا يجوز إلا في الشعر، وإضافة الملك أو الملك إلى يوم الدين إنما هو من باب الاتساع إذ متعلقهما غير اليوم.

والإضافة على معنى اللام، لا على معنى في، خلافاً لمن أثبت الإضافة بمعنى في، ويبحث في تقرير هذا في النحو».

* * *

دراسة نص أبي حيان
في «سورة الفاتحة»

آ ـ **الحديث عن الجانب اللغوي**: بسم: بدأ بالباء فذكر بعض معانيها، وكان مما ذكره: الإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل، وزيادتها للتوكيد، والبدل، والمقابلة، والمجاوزة، والاستعلاء، والتعليل، ومع ذلك هذه المعاني المختلفة لهذا الحرف ذكر مثالاً يوضح هذه المعاني للقارىء.

ـ انتقل بعد ذلك للحديث عن لفظ «اسم»، وضبطه بالحركات بكسر الهمزة وضمها، وسِم: بكسر السين، وسُمى.

ـ وتحدث بعد ذلك عن مادة هذه الكلمة، والخلاف بين البصريين والكوفيين: أهو من وسم أو من سمو؟ ولم يتعرض لاستدلال الفريقين، ولم يبسط الخلاف على نمط ما فعله ابن الأنباري في الإنصاف، كما أنه لم يرجح رأياً على آخر، ولكنه أشار إلى هذا إشارة موجزة، ثم أحال القارىء على كتب النحو لئلا يخرج بكتابه عن التفسير إلى الاستغراق في جوانب نحوية.

الله: بدأ الحديث عن لفظ الجلالة بعد البسملة، فتتناول «أل» وذكر ما تفيده، ومعانيها ومن ذلك: العهد، والحضور، ولمح الأصل، والغلبة، وأنها زائدة لازمة، أو زائدة غير لازمة.

ثم تعرض للخلاف في التركيب: أهي من حرفين أم من حرف واحد، وإذا كانت من حرفين فهل الهمزة زائدة أم لا، ولم يزد عن ذلك بل قال:

«مذاهب»، ثم ترك الخوض في أصول هذا الخلاف بين الخليل وغيره من العلماء رحمة الله عليهم أجمعين.

لفظ الجلالة: وبدأ بعد الحديث عن «أل» الحديث في اشتقاق لفظ الجلالة، وذكر في ذلك مذاهب، وآراء للعلماء، فجاءت على ما يلي:

- هو اسم مرتجل غير مشتق عند الأكثرين.

- وقيل: هو مشتق، ومادته لام، وياء، وهاء من «لاه» يليه: أي: ارتفع.

- وقيل: أصل المادة فيه لام وواو وهاء، من «لاه» يلوه؛ إذا احتجب أو استتر.

- وقيل: الألف زائدة، ومادته همزة ولام، من أَلَه، أي: فزع، أو أَلِه: أي تحير، أو سكن. وعلى هذه الأقاويل حذفت الهمزة اعتباطاً مثل: ناس وأصله: أناس، أو حذفت للنقل، ولزم ذلك مع الإدغام.

- وقيل: مادته واو ولام وهاء من «وله»أي: طرب، وأبدلت الهمزة فيه من الواو نحو: إشاح، وضعّف هذا الرأي، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن هذا اللفظ في اللغات الأخرى، ومن ذلك قولهم: «لاها» في السريانية، وقد عُرّب من بَعْدُ، وكذا يقول اليهود والنصارى.

الرحمن الرحيم: ذكر وزن «الرحمن» على فعلان، وأنه صيغة مبالغة، وأنه يأتي من اللازم، وقد شذّ بناؤه من المتعدي.

ولم يستعمل هذا اللفظ في غير الله سبحانه وتعالى، وفَعَل ذلك مَن تعنّت من الملحدين، ثم تعرض للفظ «رحمن» فيما لو جُرِّد من «ال» فهل يُصرف أولا؟

وذكر أن بعضهم يرى أنه أعجمي وأصله «رخمان» بالخاء المعجمة، ثم عُرِّب بالحاء المهملة، وعزا هذا الخبر إلى ثعلب.

وذكر وزن «الرحيم» وهو «فعيل»، وأنه محوّل عن «فاعل» للمبالغة ثم

ساق أمثلة المبالغة الخمسة، وزاد على ذلك وزن «فِعِّيل» بكسر فائه، وهو في الأصل من الأوزان السماعية، ولم يستطرد في بسط الحديث في أمثلة المبالغة، بل أحال على كتب النحو، إذ هي التي تُعْنَى بتفصيل ما أوجزه في هذا المقام.

ب ـ الخلاف في مكان نزول الفاتحة:

تعرّض بعد حديثه السابق عن البسملة إلى الخلاف في سورة الفاتحة، فذكر أن بعضهم ذهب إلى أنها مكية، وساق حجة أهل هذا الرأي، ثم ذكر رأياً آخر يرى أنها مدنية، ثم ذكر رأي آخرين ذهبوا إلى أنها مكية مدنية نزل بعضها هنا وبعضها الآخر هناك.

حـ ـ عودة إلى التفصيل:

بعد الحديث المجمل السابق في لفظ البسملة عاد مرة أخرى ليبسط القول بما يناسب جانب التفسير، فبعد أن ذكر المعاني المختلفة للباء، وقف هنا ليبين أيّ معنى يليق بالباء بهذا السياق الذي نحن فيه، فرأى أن الباء في «بسم» تفيد الاستعانة، وأن ما بعدها مجرور بها، ثم وقف عند الاختلاف في تقدير متعلَّق شبه الجملة على ما يأتي:

١ ـ الكوفيون يقدرون فعلاً وهو «بدأت بسم...»، فموضع شبه الجملة النصب.

٢ ـ وقَدّر الزمخشري فعلاً آخر، وجعله متأخراً فقال: التقدير: بسم الله أقرأ أو أتلو.

٣ ـ ولم يقدر البصريون فعلاً، بل قدروا اسماً مبتدأ، ومتعلق الخبر محذوف، أي: ابتدائي ثابت أو مستقر باسم الله.

وبعد هذا العرض رَجّح أبو حيان رأي الكوفيين؛ لأن الأصل في العمل للفعل، وأجاز أن يكون الثاني لبقاء أحد جزأي الإسناد. وانتقل بعد هذا إلى لفظ «اسم» فَعَرَّفهُ، وفرّق بين الاسم والمسمى، وذكر بعض آيات القرآن الكريم مما ورد فيه لفظ «اسم».

ثم وقف عند الحديث عن حذف الألف من «بسم» بعد دخول الباء، إذ الأصل بـ«اسم»، وذكر أن الحذف للتخفيف لكثرة الاستعمال، ثم بسط الخلاف بين الكسائي والأخفش، والفراء في حقيقة الحذف من باسم الله، وباسم الرحمن، وباسم القاهر، وغيرها مما لم تأت فيه البسملة تامة.

وانتقل للحديث بعد هذا إلى لفظ الرحمن، وقد ذهب بعضهم إلى أنه صفة لله، وهو رأي الجماعة، ثم ذكر: أنه بدل عند الأعلم وغيره، وتعرض بعد ذلك للخلاف بين الوصفية والبدل، وأنه إذا ثبتت العلمية امتنع النعت وتعيّن البدل. ثم استطرد إلى المقارنة بين الرحمن والرحيم، وبيان المبالغة وحدودها فيهما، وأيهما أبلغ من الآخر، وتابع الحديث عن معنى الرحمن الرحيم عند المتقدّمين، ومتى يكونان، ولمن يكون ذلك، وأيّ هذين اللفظين أمدح من الآخر في حق الله سبحانه وتعالى.

الجانب البلاغي: وذكر من ضروب البلاغة في البسملة اثنين:

١ ـ الحذف في «بسم»، وهو حذف المتعلق، فقيل: إنه للتخفيف، ويرى السهيلي غير هذا، فهو عنده موضع لا يقدّم فيه سوى ذكر الله تعالى ولو ذكر الفعل ـ وهو لا يستغني عن فاعله ـ لما كان ذكر الله مقدّماً، ومن الحذف حذف الألف في «بسم» في الخط، وقد سبق الحديث عنه.

٢ ـ التكرار في الوصف، وهو إما لتعظيم الموصوف، وإما للتأكيد.

الجانب الفقهي: وذكر بعد هذا أنه لا يتعرض لحكم التسمية في الصلاة، واختلاف العلماء فقد أطال المفسرون في هذا مع أن مكانه في كتب الفقه، قال: «ونحن في كتابنا هذا لا نتعرض لحكم شرعي إلا إذا كان لفظ القرآن يدل على ذلك الحكم، ويمكن استنباطه بوجه من وجوه الاستنباطات».

الربط بين آيتين: ختم أبو حيان حديثه عن البسملة بالربط بينها وبين الآية الثانية من هذه السورة وهي قوله تعالى: «الحمد لله رب العالمين» فذكر ما يأتي:

١ ـ قرأ قوم من الكوفيين بالوقف على ميم «الرحيمْ» ثم ابتدؤوا بهمزة مقطوعة «ألحمد..».

٢ ـ الجمهور ماضون على القراءة«الرحيمِ الحمدُ» بكسر الميم لالتقاء الساكنين، ووصل الألف من لفظ «الحمد».

٣ ـ ونقل عن الكسائي قراءة بعضهم «الرحيمَ الحمدُ...» بفتح الميم ووصل الألف، وكأنك ألقيت حركة همزة الوصل ـ وهي الفتحة ـ على الميم وذكر أنها لم تُرْوَ عن أحد.

وخلاصة هذا العرض: أنك ترى أنه مر بمراحل في الحديث عن البسملة:

أ ـ حديث لغوي صرْف: نحوي وصرفي، في حديثه عن المفردات في الآية، وقد تناول فيها عموميات لا تخص السياق الذي جاءت فيه، كحديثه عن «الباء» و «أل» وصيغ المبالغة.

ب ـ حديث تناول فيه مفردات هذه الآية من الناحية اللغوية، ونقل في ذلك ما نقل عن المتقدمين، فجمع بين التفسير اللغوي والتفسير المأثور فيها عن المتقدّمين.

جـ ـ ذكر القراءات المنقولة وقُرّاءها.

د ـ خَرَّج هذه القراءات على وجوه العربية، وبَيَّن آراء المتقدّمين فيها.

هـ ـ ختم كلامه بالحديث عن الجانب البلاغي، وهذا شأنه في معظم ما ورد في البحر.

* * *

نصوص من مؤلفات أبي حيان

المشايخ[1]:

قال أبو حيان[2]: «قال الحسن: أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، ولا يُسْمع لهم صوت، إنْ هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، انتهى.

ولو عاش الحسن إلى هذا الزمان العجيب الذي ظهر فيه ناس يتسمون بالمشايخ، يلبسون ثياب شهرة عند العامة بالصلاح، ويتركون الاكتساب، ويرتبون لهم أذكاراً لم ترد في الشريعة، يجهرون بها في المساجد، ويجمعون لهم خداماً، يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم ونتش أموالهم، ويذيعون عنهم كرامات، ويرون لهم منامات، ويدونونها في أسفار، ويحضون على ترك العلم والاشتغال بالسنة، ويرون الوصول إلى الله بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأت بها كتاب منزل، ولا نبي مرسل، ويتعاظمون على الناس بالانفراد على سجادة، ونصب أيديهم للتقبيل، وقلة الكلام، وإطراق الرؤوس، وتعيين خادم يقول: الشيخ مشغول في الخلوة، ورسم الشيخ، قال الشيخ، رأى الشيخ، الشيخ نظر إليك، الشيخ

---

(١) هذه مجموعة من النصوص اخترتها من «البحر المحيط» تتناول ظواهر وموضوعات لا تجدها في كتب التفسير الأخرى، ولا يتوقع وجودها في مثل هذا الكتاب، وهي تبين ثقافة أبي حيان واهتماماته المتنوعة.
وقد تجد في هذه النصوص أخطاء وتحريفات وقد تركتها على ما جاءت عليه في هذه المطبوعات، إذ ليس من مهمتي في هذا العرض تصويب هذه النصوص المحققة.

(٢) البحر (٤/ ٣١١).

كان البارحة يذكرك، إلى نحو من هذه الألفاظ التي يخشون [كذا] بها على العامة، ويجلبون بها عقول الجهلة، هذا إن سلم الشيخ وخادمه من الاعتقاد الذي غلب الآن على متصوفة هذا الزمان من القول بالحلول، أو القول بالوحدة، فإذ ذاك يكون منسلخاً عن شريعة الإسلام بالكلية، والعجب لمثل هؤلاء كيف ترتب لهم الرواتب، وتبنى لهم الربط، وتوقف عليهم الأوقاف، ويخدمهم الناس في عروهم عن سائر الفضائل، ولكن الناس أقرب إلى أشباههم منهم إلى غير أشباههم، وقد أطلنا في هذا رجاء أن يقف عليه مسلم فينتفع به».

التظاهر بالصلاح:

قال[١]: «وكثيراً ما نرى من المتصلحين إذا حدثوا (قالوا)[٢] كان وردُنا البارحة كذا، وفاتنا من وردنا البارحة، أو فاتنا وردنا، يوهمون الناس أنهم يقومون بالليل، وترى لبعضهم في جبينه سواداً يوهم أنه من كثرة السجود.

ولبعضهم احتضار النية حالة الإحرام، فيحرك يديه مراراً، ويصفق حتى ينزعج من بجانبه، وكأنه يخطف شيئاً بيديه وقت التحريكة الأخيرة، يوهم أنه يحافظ على تحقيق النية، ويقول بعضهم في حلفه: وحق البيت الذي زرتُ يُعلم أنه حاج، وإذا لاح له فَلْسٌ يثب عليه وثوب الأسد على الفريسة، ولا يلحقه شيء من الوسواس، ولا من إحضار النية في أخذه، ونراه يحب الثناء بالأوصاف الجميلة التي هو عار منها».

وقال في موضع آخر[٣]: «وحكى لي من لا أتهمه عن بعض المنتمين إلى أنه من أهل الصلاح أنه رؤي في يده كتاب ينظر فيه، فسئل عنه، فقال فيه ما أخذته عن رسول الله، وفيه ما أخذته عن الله شفاهاً، أو شافهني به، الشك من السامع، فانظر إلى جراءة هذا الكاتب على الله، حيث ادعى مقام

---

(١) البحر (٨/ ١٦٥).
(٢) زيادة لا بد منها ليستقيم النص.
(٣) البحر (٢/ ٤٨١).

من كَلَّمه الله كموسى، ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وعلى سائر الأنبياء»[١].

السحر والنفث:

قال أبو حيان[٢]: «قال ابن عطية: وهذا النفث هو على عُقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور، فيؤذى بذلك، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب، وحدثني ثقة: أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان، فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك، فكان إذا حل عقدة جرى الفصيل إلى أمه في الحين فرضع».

الخرافات:

قال أبو حيان[٣]: «وكثيراً ما تولع أهل مصر بطلب أشياء من المستحيلات، والخرافات، من ذلك: تغوير الماء، وخدمة الصور الممثلة في الجُدُر خطوطاً، وادعاؤهم أن تلك الخطوط تتحرك، وإذا خدمت بأنواع من الخدمة لهم والكيمياء، حتى إن مشايخ العلم عندهم الذين هم عندهم بصورة الولاية يتطلب ذلك من أجهل وارد من المغرب».

تحريك الرؤوس:

من عادة المسلمين تحريك الرؤوس عند قراءة القرآن، وقد ذكر لما نشر موسى الألواح، وفيها كتاب الله اهتز كل ما حوله، فلذلك لا ترى يهودياً يقرأ التوراة إلا اهتز، وأنغض لها رأسه، وينقل ذلك أبو حيان، ويذكر أن هذه النزعة سرت على أبناء المسلمين في مصر بينما الوضع مختلف في الأندلس، إذ يحذرون أبناءهم من التشبه باليهود[٤].

---

(١) انظر نصين آخرين في البحر (٤/ ٣٣٨، ٦/ ١٤٧، ٧/ ٤٧٢).
(٢) انظر البحر (٨/ ٥٣١).
(٣) البحر (٧/ ١٣٣).
(٤) البحر (٤/ ٤٢٠).

كنوز المقطّم والآبار

بمناسبة قوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] يقول أبو حيان:[١] «وقيل هي كنوز المقطم ومطالبه، قال ابن عطية: هي باقية إلى اليوم، وأهل مصر في زماننا في غاية الطلب لهذه الكنوز التي زعموا أنها مدفونة في المقطم، فينفقون على حفر هذه المواضع في المقطم الأموال الجزيلة، ويبلغون في العمق إلى أقصى غاية، ولا يظهر لهم إلا التراب أو حجر الكذان، الذي المقطم مخلوق منه، وأي مغربي يرد عليهم سألوه عن علم المطالب، فكثير منهم يضع في ذلك أوراقاً ليأكلوا أموال المصريين بالباطل، ولا يزال الرجل منهم يذهب ماله في ذلك حتى يفتقر وهو لا يزداد إلا طلباً لذلك حتى يموت.

وقد أقمت بين ظهرانيهم إلى حين كتابة هذه الأسطر نحواً[٢] من خمسة وأربعين عاماً، فلم أعلم أن أحداً منهم حصل على شيء غير الفقر، وكذلك رأيهم في تغوير الماء يزعمون أن ثم آباراً، وأنه يكتب أسماء شقفة، فتلقى في البئر، فيغور الماء، وينزل إلى باب في البئر يدخل منه إلى قاعة مملوءة ذهباً وفضة وجوهراً وياقوتاً، فهم دائماً يسألون من يرد من المغاربة عمن يحفظ تلك الأسماء التي تكتب في الشقفة، فيأخذ شياطين المغاربة منهم مالاً جزيلاً، ويستأكلونهم، ولا يحصلون على شيء غير ذهاب أموالهم، ولهم أشياء من نحو هذه الخرافات يركنون إليها،

---

(١) البحر (٧/١٩).

(٢) إذا أخذنا هذا من تاريخ دخوله مصر عام ٦٨٠ تبيَّن أنه كتبه عام ٧٢٥هـ.

ويقولون بها، وإنما أطلت في هذا على سبيل التحذير لمن يعقل».

الآثار والنقود:

«وقال شيخنا ابن النقيب وهو جامع كتاب (التحرير والتحبير) في هذا الكتاب: أخبرني جماعة من الصالحين ـ كان شغلهم السياحة ـ: أنهم عاينوا بجبال مصر وبراريها حجارة على هيئة الدنانير والدراهم، وفيها آثار النقش، وعلى هيئة الفلوس، وعلى هيئة البطيخ العبدلاوي وهيئة البطيخ الأخضر، وعلى هيئة الخيار، وعلى هيئة القثاء، وحجارة مطولة رقيقة معوجة على هيئة النقوش، وربما رأوا على صورة الشجر».

أرض مصر والمطر:

قال أبو حيان[1]: «قال الزمخشري: ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر انتهى....، وقوله كأهل مصر ليس كما ذكر بل ينتفعون بالمطر في كثير من أوقات نمو الزرع، وأنه به ينمو ويجود، بل تمر على الزرع أوقات يتضرر، وينقص نموه بامتناع المطر».

المُنجِّمون:

قال أبو حيان[2]: «المنجمون ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهالهم، والتمويه والاختلاق من أذكيائهم، ولهم في ذلك تصانيف تشتمل على خرافات، يموهون بها على الملوك وضعفاء العقول، ويعملون موالد يحكمون فيها بالأشياء لا يصح منها شيء، وقد وقفنا على أشياء من

(١) البحر (٥/ ٣٧٤) وما ذكره الزمخشري هنا هو الصحيح، وهو ما سمعته من أكثر المصريين، وما ذهب إليه أبو حيان لم يشهد له أحد من أهل مصر، وهو لم يبن حكمه على سؤال لمن حوله وإنما بناه على النفع المرجو غالباً من نزول المطر في أي أرضٍ كان.

(٢) البحر (٨/ ٢٩٩).

كذبهم في تلك الموالد، وما يحكونه عن أبي معشر وغيره من شيوخ السوء كذب يغرون به الجهال».

* * *

الاشتقاق[١]:

أكبرُ: وهو عقدُ تقاليبِ الكلمة على معنىً واحدٍ[٢]، وذهب إليه ابنُ جني[٣].

وأصغرُ: وهو إنشاء فَرعٍ عن أصلٍ يَدُل عليه[٤]، ويعرف الأصلُ في الفرع[٥] بشيئين:

باعتبار دَورِهِ في اللفظ والمعنى.

---

(١) هذا النص من كتاب «المبدع في التصريف» لأبي حيان تحقيق وشرح د. عبد الحميد السيد طلب. نشر دار العروبة للنشر والتوزيع ط/ ١، ١٩٨٢، الكويت.

(٢) المراد بتقاليب الكلمة: الصور المختلفة التي تنتج من تقديم الحرف أو توسطه أو تأخره. والحروف مثلاً في (قال) ثلاثة أحرف لو قلّبناها لأنتجت لنا ست صيغ، وهذا ما قصده ابن جني بالتصريف الأكبر، وعليه سار الخليل بن أحمد في كتاب العين/ انظر المزهر (جـ١ ص٣٤٥).

(٣) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جني، وله كتب كثيرة في علم التصريف، ومنها: مختصر التصريف، وسر صناعة الإعراب، وله كذلك في النحو واللغة وإعراب القرآن، وهو غني عن التعريف بين علماء العربية توفي سنة ٣٩٢ هـ، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٣/ ٣٦٤)، أعيان الشيعة (٣٩/ ٢٠٢)، إنباه الرواة (٢/ ٣٣٥)، البداية والنهاية (١١/ ٣٣١)، بغية الوعاة (٢/ ١٣٢)، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢/ ٢٤٤/ ٢٤٩)، تاريخ بغداد (١١/ ٣١١ ـ ٣١٢)، روضات الجنات (٤٦٦)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٠)، كشف الظنون (٣٣٩)، اللباب (١/ ٢٤٣)، مرآة الجنان (٢/ ٤٤٥) معجم الأدباء (١٢/ ٨١) معجم المؤلفين (٦/ ٢٥١) النجوم الزاهرة (٤/ ٢٠٥)، نزهة الألباء (٣٣٢/ ٣٣٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤١٠)، يتيمة الدهر (١/ ١٢٤، ١٢٥).

(٤) وذلك مثل: (أحمر) فإنه منشأ من (الحمرة) وهي أصل له وفيه دلالة عليها.

(٥) عند اتحاد البنيتين في الأصول والمعنى.

وبأنه ليس ثَمَّ ما هو به أولى.

ومُرجّحُ الأولوية أحدُ تسعةٍ:

كوْنُ أحدِ المعنيين أَمْكَنَ[١] أوأشْرَقَ[٢]أو أبْين[٣] أو أقرب[٤] أو أليقَ[٥]، أو أخصَّ[٦]، أو مطلقاً[٧]، أو جوهراً[٨]، أو أحسنَ تصرفاً[٩]والآخرُ ليس كذلك.

ولا يُدخل اشتقاقٌ ما لا يدخُلهُ تصريف[١٠] ولا نادراً[١١]، ولا خُماسياً[١٢] ولا مُتَداخلاً[١٣].

---

(١) لكثرة ما يشق منه كالمصدر، وذلك كالسقاء من (السقي).
(٢) كلفظ (مالك) من (الملك) بمعنى القدوة أو من (الملك) بمعنى الشد والربط، والأول أشرف لأن الله تعالى اشتق اسمه منه في صفات فقيل: «مَالك وَمَلِك وَملِيك».
(٣) وذلك مثل (الإقبال، والقَبَل) والأول أظهر.
(٤) فالأقرب أولى من الأبعد، وذلك مثل ردّك (العُقار) إلى (العقر).
(٥) يريد بالأليق: الأشد ملاءمة وذلك مثل (هداية) و(هوادي).
(٦) فالأخص أولى من الأعم الذي هو له ولغيره كالفضل والفضيلة.
(٧) ويكون الآخر مُضَمَّناً، وذلك كالقرب والمقاربة، فالقرب أولى من المقاربة، لأن المقاربة مضمنة، وأما القرب فمطلق.
(٨) فيكون الرد إلى الجوهر أولى من الرد إلى العرض، لأن الجوهر أسبق إلى النفس في التقديم كقولهم: استحجر الطين مأخوذ من (الحجر)، واستنوق الجمل، مأخوذ من الناقة، وترجلت المرأة، مأخوذ من الرجل.
(٩) فنجد رده إليه سهلاً قريباً وبيناً واضحاً كالمعارضة والاعتراض والتعريض والعارض والعرْض ورده كله إلى معنى (العرض) وهو الظهور أولى من رده إلى مَعْنى (العُرْض) وهو الناحية.
(١٠) وهو الاسم الأعجمي والصوت والحرف والشبيه بالحرف وقد سبق التمثيل لها.
(١١) مثل لها ابن عصفور بكلمة (طوبالة) وهي النعجة ولندرة استعمالها لا يحفظ لها ما ترجع إليه.
(١٢) يريد الأسماء الخماسية لامتناع تصرف الأفعال منها فليس لها من أجل ذلك مصادر على لفظها.
(١٣) وذلك ككلمة (جَون) تطلق على الأسود والأبيض.

وأصْلهُ من المصارد[١]، وأصدقُه في مزيد الأفعال[٢]، والصفات[٣]، واسْمي الزَّمان والمكان[٤]، والعلم في الأكثر[٥].

وأصْعَبُه في اسم الجنس[٦]، وهو فيها قليل[٧].

* * *

(١) يريد أن أصل المشتقات جميعاً من (المصادر) وهو رأي البصريين انظر الإنصاف لابن الأنباري مسألة ٢٨، والمزهر (جـ ص٣٥٠).

(٢) لأنها ترجع بقرب إلى غير المزيدة.

(٣) لأنها جارية على الأفعال أو في حكم الجارية.

(٤) يريد اسمي الزمان والمكان المأخوذين من لفظ الفعل، لأنها هي التي تجري عليه.

(٥) ويريد بها الأعلام المنقولة مثل زيد وبكر وخالد وصالح.

(٦) لأنها أسماء أطلقت على مسمياتها في بادىء الأمر من غير أن تكون منقولة من شيء، وذلك مثل (تراب وحجر وماء) وغير ذلك من أسماء الأجناس.

(٧) يقصد أن الاشتقاق قليل في أسماء الأجناس لما قدمنا، ومن هذا القليل مثلاً كلمة (غراب) فيمكن أن يكون مأخوذاً من (الغربة) أو (الاغتراب) بدليل أن العرب تتشاءم به وتزعم أنه دليل الفراق.

النـداء[1]

كلم النداء، **الصحيح**: إنها حروف، وقيل أفعال لتعلق الجار والمجرور بها، في قولهم: بالله، للإجماع على أنه لا يتعلق إلاَّ بالفعل، أو ما فيه رائحته، وقيل: أسماء؛ لأنها تُمال، ولا يمال إلاَّ الاسم: يا زيد زيد عمرو. ذكر مذهب سيبويه والمبرد، ثم قال: وقال الأعلم: إن الاسم الأول منادى مفرد علم، والثاني منصوب على البدل على الموضع، فحركة الثاني حركة إعراب، وحركة الأول حركة بناء، ثم أتبع حركة البناء حركة الإعراب ونصب، وإذا قلت: يا زيدُ زيد عمرٍو، فرفعت الأول، ونصبت الثاني، فيجوز نصبه على البدل على الموضع، أو على إضمار فعل، ويجوز رفعه، فتقول: زيدُ عمرو، ورفعه على البدل على اللفظ، أو عطف بيانٍ، وهو الأحسن، أو خبر ابتداء مضمر، انتهى

من كلام ابن ريدان رحمه الله:

قلَّما يبرحُ اللبيبُ إلى ما يورثُ المَجْد داعياً أو مُجيبا[2]

ابن ريدان في التمشية من نظر إلى اللفظ قال: خافض ومخفوض، وهو كو، ومن نظر إلى السر قال جار ومجرور وهم بص، فإذا قلت: مررتُ بزيدٍ، فقد أضفت المرور إلى زيد، بالباء، الضابطُ لحتى أن الآتي بعدها إن انتهى الأمر به جاز النصب والخفض، نحو: أكلت السمكة حتى

---

(١) هذا النص من كتاب «تذكرة النحاة» لأبي حيان، تحقيق عفيف عبد الرحمن، نشر مؤسسة الرسالة ط/١، ١٩٨٦.

(٢) الشاهد في مغني اللبيب / ٣٠٦ وهو شاهد على «ما» الكافّة.

رأسها، إن وقع الأكل على الجسد والرأس جعلتها عاطفة، فقلت: حتى رأسَها، وإن وقع الأكل على الجسد فقط خفضت، لأنَّ التقدير إلى رأسها، وعنده لم يجز إلاَّ الخفض كقولك: صُمتُ رمضان حتى الفطر، إن كان ماضياً تلزمه اللام وقد، أو حالاً فاللام فقط، نحو: والله ليخرج زيد، إن نفيت الاسمية، أو المصدرة بماضٍ، أو حالٍ فبما، أو بمستقبل فبلا، وقد تحذف:

لَيْـت ومـا ينفـعُ لَيـتُ ليـتُ وَليتَ شيئاً بُوعَ فَاشتريتُ[1]

العامل عمل الفعل

العامل عَمل الفعل: اسمُ الفاعل، واسم المفعول، والمثال، والوصف المشبه باسم الفاعل، والمصدر، والتفضيل، واسم الفعل: مررتُ برجل حسن وجهه، ومررت بالرجل الحسن الوجه وجهه، أجازها سيبويه في الضرورة مستدلاً بقوله:

أَمن دمنتَين، البيتين

ومنعهما كو: ما أحسن زيداً، هي عند كو بمعنى الذي، والخبر محذوف.

قال أبو عمرو الشيباني في كتاب الفرح: يزيدُ الفاعلُ على المفعول بثمانية أشياء، يلي الفعل ويضمر فيه، وتسكن له لامُهُ، ويحول بين الفعل وإعرابه، ويؤنث له الفعل، ويتم به الكلامُ، ولا يكون إلاَّ واحداً ولا يعطف عليه إلاَّ بتوكيده، ولا يكون التعجب إلاَّ منه، ولا يتقدم على الفعل «ما» المصدرية قال س هي حرف، وقال الرماني والمبرد هي اسم تضارع «ما» ليس من خمسة أوجه: المصدرية، والنفي وهما لنفي حالاً،

---

(١) الشاهد لرؤبة أو العجاج في أوضح المسالك (١/ ٣٨٥) وفي ملحقات ديوان رؤبة (١٧١).

قلت: روايته ليست كما ذكر محقق الكتاب بل هي:

ليـت وهـل ينفـع شيئـاً ليـتُ ليـت شبـابـاً بُـوع فـاشتـريـتُ

أو استقبالاً، ولدخولهما على المتبدأ والخبر، ودخول الباء خبرهما، قال كو: نعم وبئس اسمان لدخول الجار، وحرف النداء، س وابنُ السراج والأعلم والزَّجاجُ: حبذا اسم فهو مبتدأ، وزيد خَبرُه، وقال ابنُ كيسانَ: هو فعل، وذا فاعل، وزيد مبتدأ، والخبرُ في الجملة قبله، س يَعملُ بالألف واللام وقال: المبرد لا يعمل شيئاً؛ لأنه حين كان مسلوباً من الألف واللام قرب من الفعل، فعملت عمله، فلما دخلتاه قرب من الأسماء الجوامد، والجوامد لا تعمل شيئاً.

* * *

(باب التاء)[1]

أصل دخولها في فصل وصف المؤنث من وصف المذكر نحو: ضاربه وضارب، وفي فصل الآحاد المخلوقة من أجناسها نحو: دُرّة ودُرَر، وتَمْرة وتَمْر، وبقرة وبقَر، وكون الأنثى من نحو بقرة بالهاء، والمذكر بطرحها ذهب إليه الكوفيون، وحكوا: رأيت نعاماً على نعامة وحماماً على حمامة وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه، وقالوا: كَمْأَة وكَمْأً على القياس، وقال بعض العرب كَمْأ للواحد وكَمْأَةٌ للجنس، وقد تأتي لفصل الأسماء الجامدة نحو: امرؤ وامرأة، ورجل ورُجلة، وغلام وغلامة، وأسَد وأسدة، وإنسان وإنسانة، وحمار وحمارة، وبِرْذون وبرذونة، وقيل: لا ينقاس، ولفصل الآحاد المصنوعة قالوا: عمامة وعمام، وسفينة وسفين، وجرّة وجرّ، ولبنة ولَبن، وقلَنْسُوة وقَلَنس، والفرق بين الواحد والجمع في الصفات نحو: حمّار وحمّارة، وبغّال وبغّالة، وجمّال وجمّالة، ووارد وواردة، وشارب وشاربة، ومنه البصرية، والكوفية، والزبيرية، والمروانية، والمسودة، والمبيضة، الواحد بصري، وكوفي، وزبيري، ومرواني، ومسودّ، ومبيضّ، وزعم أبو زيد أحمد بن سهل[2]: أن هذا مطرد في باب الجمع الذي يؤخذ من لفظ الفعل، وأورده ألفاظاً كثيرة وقال: العلة في ذلك: أن كل جمع مؤنث، فصار مثال المؤنث، والجمع في هذا واحد، انتهى.

---

(١) النص من الارتشاف ـ الجزء الأول/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) أحمد بن سهل البلخي أبو زيد توفي سنة ٣٢٢ هـ انظر البغية ١/ ٣١١، ومعجم الأدباء ٣/ ٦٤.

وللفرق بين المقيد والمطلق نحو: ضَرْبة وضرَب، وللفرق بين الاسم والصفة نحو: رَمْية ورَمَى وشاة ذبيحة وشاة ذبيح، فرمية وذبيحة: اسم لما يرمى ولما يذبح ورمى وذبيح صفتان، وقالوا: أكيلة الأسد وفريسته أرادوا به: الاسم وكذلك حلوبة وركوبة: اسم لما يحلب ويركب، وحلوب وركوب صفتان، وجاءت صفات للمؤنث بغير تاء وليست من باب مفعول قالوا: شاة سدَيس وريح خريق وكتيبة حصيف.

وللفرق بين المذكر والمؤنث في العدد نحو: ثلاثة رجال [وثلاث جواز][1].

وتأتي أيضاً في صفات مشتركة بين المذكر والمؤنث لغير مبالغة نحو: رَبْعَة ويَفْعة، ولمبالغة نحو: عَلاَّمة، ومِطْرَابة، وفروقَة، ومُلُوحة، وحجابة، وفقاقة، وخاصة بالمذكر نحو: رجل بُهْمة أي: شجاع، وفي اسم مشترك، نحو شاة يطلق على المذكر والأنثى، ولتأكيد التأنيث نحو: ناقة ونعجة.

والأصل من الأسماء المختصة بالتأنيث: أن لا تدخلها التاء نحو: عجوز وعَنَاق إذ مذكرهما: شيخ وجَدْيٌ ولتأكيد الجمع نحو: حجارة وفحولة وقال الأستاذ أبو علي[2]: هي فيهما كالتاء في ناقة ونعجة لتأكيد التأنيث ولتأكيد الوحدة نحو: غرفة وظلمة ومدينة وعبَّر بعضهم عن هذا بتأنيث اللفظ إذ ليس تحته تأنيث معنى، ولبيان النسب نحو: المهالبة، والمسامعة، والمناذرة، والأشاعثة، أي: المنتسبون إلى المُهلَّب بن أبي صُفرة، وإلى مُسمْع، وإلى المنذر بن ماء السماء، وإلى الأشعث بن قيس، وإن اختلفت أسماؤهم، ولو حذفت التاء كان جمعاً لمن اسم كل واحد منهم: مهلب وكذا باقيها، وقيل: التاء في هذا النوع عوض من ياء النسب ولذلك لا يجتمعان وإنما يقال المُهلبيُّون أو المهالبة، وللعجمة

---

(١) في النسخة الأصل: وثلاثة جوار وهو خطأ والصحيح ما أثبته.

(٢) هو أبو علي الشلوبين ت٦٤٥ هـ.

نحو: مَوَازِجة جمع مَوْزَج وهو الخف وقيل الجورب، وكيالجة جمع كَيْلجَةَ وجمع كَيْلج وهو المكيال يكتال به، وعبر ابن مالك عن هذا بالتعريب وللنسب والعجمة نحو: البرابرة، والسيَابجة، المعنى البربريون والسَّيْبَجيون، واحدهم بربري، وسَيْبَجي، وهو خادم القبلة وقيل: قوم من السند، وللعوض من محذوف لازم الحذف نحو: لدة حذف فاؤها، وثبة حذف لامها ونحو: تزكية عوض من مدة تفعيل، وفي إقامة واستقامة عوض من عين الكلمة على خلاف في ذلك، أو معاقب نحو: زَنَادقة، وحَجَاجحة التاء عوض من ياء زناديق وحَجاجيح، وهما متعاقبان، والأصل إقرار الياء كبهاليل، ولعوض من ياء إضافة كتاب أبَتِ وأمَّت.

* * *

المصادر والمراجع

المخطوط[1]:

١ ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب/ أبو حيان النحوي.

٢ ـ الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد/ ابن مالك، مخطوط دار الكتب / ٥٧٦ لغة.

٣ ـ إعراب القرآن المجيد/ إبراهيم بن محمد السفاقسي، مخطوط تحت رقم /٣١٦/ تفسير دار الكتب.

٤ ـ أعيان العصر وأعوان النصر/ ابن تغري بردي، تاريخ ١٠٩١ دار الكتب.

٥ ـ التدريب في تمثيل التقريب/ أبو حيان النحوي.

٦ ـ التذييل والتكميل، شرح التسهيل/ أبو حيان النحوي.

٧ ـ تقريب المقرب/ أبو حيان النحوي.

٨ ـ الدر المصون في علم الكتاب المكنون/ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي دار الكتب، مخطوط «١٠٧ ـ ١٠٨» نحو.

٩ ـ شرح تحفة المودود/ صاحبه مجهول، دار الكتب / ٥٢ لغة.

١٠ ـ غاية الإحسان في علم اللسان/ أبو حيان النحوي.

١١ ـ الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية، عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي دار الكتب/ ٥١٤٤ نحو.

---

(١) ما يخص أبا حيان من المخطوطات يرجع فيه إلى الفصل الثاني من الباب الأول من كتاب «البحر المحيط لأبي حيان النحوي، دراسة نحوية صرفية صوتية» للمؤلف؛ لمعرفة أرقام هذه المخطوطات ومواضعها إن اقتضى الأمر ذلك.

١٢ ـ المبدع الملخص من الممتع/ أبو حيان النحوي.
١٣ ـ اللمحة البدرية في علم العربية/ أبو حيان النحوي.
١٤ ـ الموفور من شرح ابن عصفور/ أبو حيان النحوي.
١٥ ـ النكت الحسان في شرح غاية الإحسان/ أبو حيان النحوي.
١٦ ـ الهدية في النحو/ صاحبه مجهول.

* * *

المطبوع:

١ ـ أبو حيان النحوي: دكتورة خديجة الحديثي/ منشورات مكتبة النهضة/ بغداد طبعة أولى/ ١٩٦٦.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي جزآن / طبعة ثالثة/ ١٩٥٩ طبع مصطفى البابي الحلبي.

٣ ـ الأشباه والنظائر في النحو: /جلال الدين السيوطي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية / ١٩٧٥/ ٤ أجزاء.

٤ ـ الأصول في النحو: أبو بكر بن السراج النحوي تحقيق الدكتور/ عبد الحسين الفتلي، طبع مطبعة النعمان في النجف / ١٩٧٣/، وقد صدر منه جزآن، ثم صدر تاماً عن مؤسسة الرسالة عام ١٩٨٥.

٥ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي طبعة ثالثة عن دار الآداب، بيروت في أحد عشر مجلداً.

٦ ـ أعلام النساء: عمر رضا كحالة، صدر عن المطبعة الهاشمية بدمشق / ١٩٤٠/ في ثلاثة أجزاء.

٧ ـ الاقتراح في علم أصول النحو: جلال الدين السيوطي، نشر دار المعارف في حلب ـ سوريا.

٨ ـ البحر المحيط أبو حيان النحوي الأندلسي، طبع الرياض، بدون تاريخ.

٩ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي المصري، ط بولاق، ١٣١١، الطبعة الأولى.

١٠ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٤٨ هـ جزآن.

١١ ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار المعرفة/ بيروت، الطبعة الثانية في ٤ أجزاء.

١٢ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة أولى ١٩٦٥ جزآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
١٣ ـ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩/ في ٣ أحزاء.
١٤ ـ تاريخ الأدب العربي في العراق: عباس العزاوي طبع بغداد / ١٩٦١.
١٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، عن دار الهلال/ ١٩٥٧ مراجعة وتعليق دكتور شوقي ضيف.
١٦ ـ تاريخ الفكر الأندلسي: بلانثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى في القاهرة/ ١٩٥٥.
١٧ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر: زين الدين عمر بن الوردي/ تحقيق أحمد رفعت البدراوي نشر دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى/ ١٩٧٠.
١٨ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ابن مالك تحقيق الدكتور محمد كامل بركات، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر / ١٩٦٧.
١٩ ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: المرادي المعروف بابن أم قاسم، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي سليمان، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية/ ١٩٧٩ في ٦ أجزاء.
٢٠ ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت / ٣ أجزاء.
٢١ ـ حماسة ابن الشجري، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، طبع دمشق/ ١٩٧٠.
٢٢ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي، طبع مطبعة بولاق، ١٢٩٩، الطبعة الأولى/ ٤ أجزاء.
٢٣ ـ الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق محمد علي النجار،

طبع مطبعة دار الكتب المصرية/ ١٩٥٢/ ٣ أجزاء/ الطبعة الثانية.
٢٤ ـ الخطط المقريزية «كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، طبع دار صادر/ بيروت.
٢٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة أحمد الشنتاوي وآخرين، طبع القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٩٣٤.
٢٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق/ مصر ١٣٨٥ هـ.
٢٧ ـ ديوان الشافعي: جمع وتعليق: محمد عفيف الزعبي، نشر دار الجيل، بيروت ١٩٧٤/ الطبعة الثالثة.
٢٨ ـ ديوان علقمة بن عبدة: تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، طبع دار الكتاب العربي بحلب/ ١٩٦٩.
٢٩ ـ ديوان عمارة بن عقيل: جمع وتحقيق شاكر عاشور، طبع مطبعة البصرة ١٩٧٣/ الطبعة الأولى.
٣٠ ـ ديوان الفرزدق: طبع دار صادر بيروت/ ١٩٦٧ جزآن.
٣١ ـ ديوان القطامي، تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ط. بيروت، دار الثقافة/ ١٩٦٠.
٣٢ ـ ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: الدكتور ناصر الدين الأسد، طبع مكتبة دار العربية في القاهرة، الطبعة الأولى/ ١٩٦٢.
٣٣ ـ ذيل تذكرة الحفاظ: أبو المحاسن الحسيني الدمشقي، نشر دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
٣٤ ـ رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط.
٣٥ ـ سر صناعة الإعراب: أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق: السقا وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،

الطبعة الأولى، ١٩٥٤ صدر منه الجزء الأول، ثم صدر في جزأين عن دار القلم بدمشق.

٣٦ ـ الشافعي: حياته وعصره، وآراؤه الفقهية، الشيخ محمد أبو زهرة، نشر دار الفكر العربي/١٩٤٨/ ، طبعة ثانية.

٣٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، نشر مكتبة القدسي / القاهرة/ ١٣٥٠ هـ.

٣٨ ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى/ جزآن.

٣٩ ـ شرح التسهيل لابن مالك تحقيق: الدكتور عبد الرحمن السيد، طبع مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤، وقد صدر منه الجزء الأول.

٤٠ ـ شرح التصريح على التوضيح: الشيخ خالد الأزهري، طبع دار إحياء الكتب العربية/ جزآن.

٤١ ـ شرح كافية ابن الحاجب: رضي الدين محمد بن الحسن الاسترباذي النحوي، نشر دار الكتب العلمية/ بيروت «مصورة عن النسخة المطبوعة في تركيا عام ١٣١٠ هـ.

٤٢ ـ شرح اللمحة البدرية في علم العربية: ابن هشام الأنصاري تحقيق: الدكتور هادي نهر، طبع بغداد عام ١٩٧٧ جزآن.

٤٣ ـ شرح المفصل: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي عليه تعليقات للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر إدراة الطباعة/ في عشرة أجزاء.

٤٤ ـ صحاح اللغة وتاج العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري حققه: أحمد عبد الغفور عطار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية/ ١٩٧٩.

٤٥ ـ طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، طبع المطبعة الحسينية في مصر، الطبعة الأولى / ١٣٢٤ هـ في ٦ أجزاء.

٤٦ ـ طبقات المفسرين: محمد بن علي بن أحمد الداودي تحقيق: علي

محمد عمر، نشر مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٧٢ الطبعة الأولى/ جزآن.

٤٧ ـ ظهر الإسلام: أحمد أمين نشر دار الكتاب العربي، بيروت / ٤ أجزاء.

٤٨ ـ غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد الجزري، نشره برجستراسر عام ١٩٣٢، طبع مطبعة السعادة بمصر/ جزآن.

٤٩ ـ فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر مكتبة النهضة المصرية/ جزآن.

٥٠ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي، طبع القاهرة ٦ مجلدات، المكتبة التجارية/ ١٩٣٨.

٥١ ـ القاهرة: تاريخها ونشأتها: شحاتة عيسى إبراهيم عن دار الهلال/ بدون تاريخ.

٥٢ ـ الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان، الطبعة الأولى ١٩١٦ بولاق/ جزآن الطبعة الثانية، تحقيق عبد السلام هارون/ ٥ أجزاء، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٧٧.

٥٣ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، نشر مكتبة المثنى «بالأوفست».

٥٤ ـ لسان العرب: ابن منظور المصري.

٥٥ ـ مالك: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه محمد أبو زهرة، الطبعة الأولى /١٩٤٦، مكتبة الأنجلو.

٥٦ ـ مجالس العلماء: الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، الكويت/ ١٩٦٤.

٥٧ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي/ جزآن.

٥٨ ـ معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، طبع دار صادر، بيروت ١٩٥٧/ خمسة مجلدات.

٥٩ ـ معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، نشر المكتبة العربية بدمشق، الطبعة الأولى/ ١٩٥٧ ـ ١٩٦١/ ١٥ مجلداً.

٦٠ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة: يوسف سركيس، طبع القاهرة ١٩٤٨، مطبعة سركيس/ مجلدان.

٦١ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي تحقيق: محمد سيد جاد الحق، الطبعة الأولى/ ١٩٦٩ جزآن/ دار الكتب الحديثة.

٦٢ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: سعيد الأفغاني وزميليه، الطبعة الأولى / دار الفكر بدمشق/ ١٩٦٤.

٦٣ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زادة، الطبعة الأولى في حيدر آباد/ ١٣٥٦ هـ.

٦٤ ـ المقتضب: محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية/ ١٩٦٣/ ٤ أجزاء.

٦٥ ـ مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، نشر المكتبة التجارية بمصر.

٦٦ ـ منهج السالك إلى ألفية ابن مالك: أبو حيان النحوي: تحقيق: سدني جليزر/ ١٩٤٧ نيو هافن.

٦٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي الأتابكي.

٦٨ ـ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري التلمساني تحقيق وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي بيروت/ ١٠ أجزاء.

٦٩ ـ نكت الهيمان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، طبع المطبعة الجمالية بمصر/ ١٩١١.

٧٠ ـ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: محمد بن عبد الله عنان، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة/ ١٩٦٦.

٧١ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل باشا البغدادي، طبع إستانبول/ ١٩٥١، وأعاد طبعه بالأوفست مكتبة المثنى/ بغداد.

٧٢ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع: جلال الدين السيوطي، طبعة أولى عني بتصحيحه/ محمد بدر الدين النعساني، نشر دار المعرفة بيروت/ بدون تاريخ /جزآن . طبعة ثانية تحقيق: الدكتور عبد العال سالم مكرم، طبع دار البحوث العلمية / الكويت/ صدر في ٧ أجزاء/ ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠، والجزء السابع خاص بالفهارس.

الفهرس

المؤلِّف

- ولد في قرية (عسال الورد) من ريف دمشق / ١٩٤٣م .

- تخرج في جامعة دمشق - قسم اللغة العربية وآدابها عام ١٩٦٩ .

- حصل على الماجستير من جامعة عين شمس في جمهورية مصر عام ١٩٧٦ .

- حصل على الدكتوراه في النحو والصرف من كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٨١

- عيِّن مدرِّساً في قسم اللغة العربية بكلية التربية الأساسية في الكويت منذ عام ١٩٨٦م .

- تسلّم رئاسة قسم اللغة العربية في الكلية نفسها عام ١٩٩٢ وحتى عام ١٩٩٥ .

- هو مستشار لجنة النشر والترجمة والتأليف بجامعة الكويت .

- عضو في عدد من لجان التأليف والتطوير في وزارة التربية بدولة الكويت .

من مؤلفاتــه :

١ - معجم القراءات القرآنية (١١ مجلداً) - دار سعد الدين - دمشق .

٢- في أصول الإملاء ط / ٣ دار سعد الدين - دمشق .

٣- القرآن قاموس اللغة (تفسير وبيان) دار الترجمة - الكويت .

٤- من قضايا العربية المعاصرة ، دار الترجمة - الكويت .

٥- تحقيق وشرح مغني اللبيب ، وقد وصل فيه إلى الجزء الخامس .

٦- تحقيق «معاني القرآن الكريم» - بالاشتراك مع الدكتور سعد مصلوح .

٧- المغني في إعراب القرآن الكريم ، يجري العمل فيه الآن .

٨- البحر المحيط - دراسة نحوية صرفية صوتية . دار سعد الدين بدمشق .

٩- ابن يعيش وشرح المفصَّل - دار سعد الدين بدمشق .

١٠- تحقيق البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي بالاشتراك مع د . علي أبو زيد .

وله عدد من المؤلفات الأخرى تحت الطبع ، وعدد من المقالات المنشورة في مَجلات محكمة .

سلسلة الأعلام
صدر منها :



دار ابن كثير
دمشق - ص . ب ٣١١
بيروت - ص . ب ٦٣١٨ / ١١٣